أناتول فرنس

الآنسة روزان

قصص

ترجمة

سالم العطفي

الكتاب:الآنسة روزان (قصص)

الكاتب:أناتول فرنس

ترجمة:سالم العطفي

الطبعة: ٢٠٢٠

الناشر: وكالة الصحافة العربية " ناشرون"

٥ ش عبد المنعم سالم – الوحدة العربية – مدكور- الهرم – الجيزة

جمهورية مصر العربية

هاتف : ٣٥٨٢٥٢٩٣ _ ٣٥٨٦٧٥٧٦ _ ٣٥٨٦٧٥٧٥

فاكس : ٣٥٨٧٨٣٧٣

E-mail: news@apatop.comhttp://www.apatop.com

All rights reserved. No part of this book may be reproduced, stored in a retrieval system, or transmitted in any form or by any means without prior permission in writing of the publisher.

جميع الحقوق محفوظة: لا يسمح بإعادة إصدار هذا الكتاب أو أي جزء منه أوتخزينه في نطاق استعادة المعلومات أو نقله بأي شكل من الأشكال، دون إذن خطي مسبق من الناشر.

دار الكتب المصرية

فهرسة أثناء النشر

فرنس،أناتول

الآنسة روزان"قصص" / أناتول فرنس ، ترجمة: سالم العطفي – الجيزة – وكالة الصحافة العربية.

١٠١ ص، ١٨*٢١ سم.

الترقيم الدولي: ٧ – ٦٦ – ٦٧٧٤– ٩٧٧– ٩٧٨

أ – العنوان رقم الإيداع : ٤٧٩٤ / ٢٠٢٠

الآنسة روزان

وكالة الصحافة العربية
«ناشرون»

مقدمة

أناتول فرنس كاتب من أئمة الكتاب الفرنسيين ونابغة من نوابغ المفكرين في العصر الحديث،وُلد سنة ١٨٤٤ وتوفى في سنة ١٩٢٤كان أبوه بائع كتب، وكانت مكتبته، المملوءة بكتب الآداب والتاريخ والصور الفنيّة، ملتقى كثير من الأدباء والشعراء. فكان أناتول فرنس، في سنيّ حداثته، يجلس منصتاً لأقوالهم ومجادلاتهم، فشغف بالآداب والفنون منذ ذلك العهد.

وبدأأناتول فرنس حياته الأدبية ينظم الشعر، فأخرج في سنة ١٨٧٣ «القصائد الذهبية»، ولكنه تحول عن الشعر، لأنه يلائم عصر السرعة، وأنصرف إلى النثر. وذاعت شهرته بعد أن نشر كتابه «جريمة سيلفستر بونار» في سنة ١٨٨١.

وكتب ذكريات طفولته في عدة كتب، أشهرها «كتاب صديقي»، وهي من أعذب ما كتب.

على أن عبقرية هذا الكاتب تتجلى في قصصه الرائعة وفي نقده اللاذع.

وقد تولى تحرير القسم الأدبي بجريدة الطان نحو عشر سنوات. وانتخب عضواً في الأكاديمية الفرنسية سنة ١٨٩٦م ونال جائزة نوبل

في الآداب سنة ١٩٢١.

ويبرز في كل ما كتب التشكك والسخرية. فهو يرتاب في كل شيء ويتهكم بكل شيء. ويكفي أن ترجع إلى كتبه الأربعة «التاريخ الحديث» التي حمل فيها على النظام النيابي في فرنسا، لترى كيف يقوم هذا النظام، في نظره، على النفاق، وكيف يغيّر رجال السياسة مبادئهم عند أنتقالهم من مقاعد البرلمان إلى مقاعد الوزراء، وكيف يمسك أرباب المال والصناعة بزمام الصحافة كما يمسكون برجال الدولة، وكيف يسخّرون هؤلاء وأولئك لأطماعهم وأهوائهم في مقابل ملء جيوبهم وإشباع بطونهم...

على أن أناتول فرنس كان إلى جنب تهكمه وأرتيابه يعطف على الناس ويرقّ لحال الطبقات الفقيرة، ويبغض الظلم ويكره الحروب.وكان يحلم بأن يرى عصراً جديداً يبزغ فجره على الإنسانية ويكون عصر عدالة وسلام.

ومن عباراته المأثورة:

«الحضارة والحرب شيئان متلازمان».

«الجمال هو من جملة الاشراك المتعددة التي تنصبها لنا الطبيعة لتحملنا على طاعتها».

«الجمال هو نبوع الفنون والآداب، ومصدر كل ما أنشأ الإنسان من عظيم وبديع وما يحق له أن يفخر به».

«لم يطبع الناس على الشر، وهم لم يطبعوا على الخير، ولكنهم طبعوا على هذا وذاك معاً».

والقصص التي نقدمها إلى قراء العربية في هذا الكتاب، مختارة من كتب مختلفة لهذا الكاتب العظيم.

المترجم

بلتازار

في ذلك العهد كان "بلتازار" ملكاً على أتيوبيا. وكان أسود اللون غير أنه كان وسياً، بسيط العقل كريم القلب. ففي السنة الثالثة من حمه، التي كانت الثانية والعشرين من عمره، ذهب لزيارة "بلقيس" ملكة سبأ. يصحبه المجوسيّ "سيمو بيتيس" والخصى "منقرع" ومن ورائه خمسة وسبعون جملاً تحمل المرّ وتبر الذهب وسن الفيل. وفي أثناء الطريق كان "سمبو بيتيس" يعلّمه تأثير النجوم وخواص الأحجار، و"منقرع" ينشد له الأناشيد الدينية. ولكنه لم يصغ إليها، إذ كان لاهياً برؤية بنات آوى وهي مقعية على الرمل، ناصبة آذانها.

وبعد مسيرة إثنى عشر يوماً أخذ النسيم يحمل أريج الورد إلى بلتازار وحاشيته. ثم ما لبثوا أن لاحت لهم مدينة سبأ. وهناك رأوا الفتيات يرقصن تحت أشجار الرمان المزهرة، فقال الحكيم "سيمبو بيتيس":

– الرقص ضرب من ضروب الصلاة.

وقال الخصى "منقرع":

– لا بد أن أولئك النسوة تباع بثمن عظيم.

ولما دخلوا المدينة أخذهم العجب مما رأوا من حوانيت عظية وميادين فسيحة، فيها السلع مكدِّسة. وما زالوا يسيرون في شوارع مكتة بالعربات والحمير والحمارين والحمالين حتى أنتهوا فجأة إلى جدران عالية من الرخام ومن فوقها قبب ذهبية، فعرفوا أنه قصر بلقيس.

ولقيتهم ملكة سبأ في رحبة هفهافة أرجة، تنبعث المياه من وسطها ثم تتساقط منثورة كاللآلي، فُيسمع لها هدير جهير. وكانت بلقيس واقفة وهي تبتسم في ثوب من الأحجار النفيسة. فلما رآها بلتازار تملكته اضطرابة عظيمة، إذ هو قد وجدها أعذب من الحلم وأجمل من الشهوة.

فهمس إليه "سيمبو بيتيس":

– لا تنس يا مولاي أن تعقد معها معاهدة تجارية.

وقال "منقرع":

– كن على حذر يا مولاي إذ يقال إنها تلجأ إلى السحر لتوقع الرجال في حبها.

ثم سجد له التابعان وانصرفا.

ولما بقى بلتازار وحده مع بلقيس حاول أن يتكلم، وفتح فاه ولكن الكلام أستغلق عليه. فقال في نفسه: «لا شك في أن صمتي سيغضب الملكة».

على أن الملكة كانت لا تزال باسمة، ولم يبد عليها أنها غاضبة. وقد بدأت هي بالكلام فقالت بصوت أرخم من أرخم نغمات الموسيقى:

– مرحباً بك وأهلا. تعالَ وأجلس بالقر مني. وأشارت بأسبع كأنها شعاع من الضوء الأبيض إلى الوسائد الأرجوانية المطروحة على الأرض.

فجلس بلتازار، وزفر بتنهيدة طويلة، ثم قبض بيديه على وسادتين وصاح في عجلة قائلاً:

– مولاتي إني أود لو أن كل وسادة من هاتين الوسادتين كانت جباراً عاتياً من أعدائك فأقصف عنقه.

وفيما هو يتكلم كانت يداه تحصران الوسادتين بشدة حتى انفزر نسيجهما فأنبعثت في الهواء سحابة من الزغب. ووقعت إحدى الرياش على نهد الملكة، فأحمر وجهها وقالت:

– ولمَ إذن تريد أن تفتك بالجبابرة يا مولاي بلتازار.

أجاب:

– لأني أحبك.

فسألته بلقيس:

– هل ماء الآبار عذب في عاصمتك؟.

فقال بلتازار مدهوشاً:

– نعم.

قالت:

– بلى إني متشوقة لأن أعرف كيف تصنع المرّبي الجافة في أتيوبيا.

فتحير الملك. وألحت هي في السؤال:

– قل، قل، إرضاءً لي.

فأجهد بلتازار وأخذ يصف لها أساليب الطهاة في طهي السفرجل بالعسل. ولكنها لم تسمع إليه وقطعت حديثه بغتة فقالت:

– يقال يا مولاي إنك تحب الملكة "كنداس" جارتك. لا تخدعني، هل هي أجمل مني؟.

فصاح بلتازار، وقد ألقى بنفسه عند قدمى بلقيس:

– أجمل منك يا مولاتي! هل هذا ممكن؟.

ومضت الملكة في السؤال:

– فعيناها مثلا؟ ثم فمها؟ ثم لونها؟ ثم جيدها؟... فمد بلتازار ذراعيه نحوها وصاح قائلاً:

– دعيني آخذ الريشة الصغيرة التي وقعتْ على نهدك وأنا أعطيك نصف مملكتي ومعه الحكيم "سمبو بيتيس" والخصى "منقرع".

ولكنها قامت وفرَّت منه وهي تضحك ضحكاً جهيراً. ولما عاد المجوسيّ والخصى وجدا مولاهما في حال من الذهول ولن يعهداها له من قبل. فسأله "سيمبو بيتيس":

– ألم يوفق مولاي إلى عقد معاهدة تجارية؟.

وفي ذلك اليوم تعشى بلتازار مع ملكة سبأ وشرب من نبيذ النخل. فقالت بلقيس في أثناء العشاء:

– أصحيح إذن أن الملكة "كنداس" لا تعدلني جمالاً؟

قال بلتازار:

– الملكة "كنداس" سوداء.

فنظرت إليه بلقيس وحدقت ثم قالت:

– قد يكون الإنسان أسود اللون من دون أن يكون قبيحاً.

فصاح الملك:

– بلقيس!...

ولم يفه بأكثر من ذلك. فأخذها بين ذراعيه ودنا بشفتيه من جبينها. غير أنه رآها تبكي. فجعل يناديها بزهيرته ونجيمته، مترفقاً مترنماً في كلماته كما تفعل المرضعات.

ثم قال لها:

– لمَ تبكين؟ ما الذي ينبغي أن أفعل حتى تكّفي عن البكاء؟ خبّريني برغبتك فأرضيها.

فأنقطعت عن البكاء وبقيت صامتة ساهية. ومازال يلح عليها في أن تسرّ له برغبتها حتى قالت:

– أريد أن أخاف.

ولما بدا على بلتازار أنه لم يدرك ما تقوله، أوضحت له أنها تتوق من زمن بعيد إلى الأستهداف لخطر مجهول، ولكنها لا تجد وسيلة إلى بغيتها، لأن الناس والآلهة في سبأ ساهرون على حراستها. وأضافت متنهدة:

– على أني أريد أن أستشعر في ظلمة الليل برعدة الفزع تتدخل إلى الحمى، وأن أحس بشعري قائماً فوق رأسي. ما أطيب الخوف وألذّ روعته!

ثم طوقت عنق الملك الأسود بذراعيها وقالت في لهجة طفل يتوسل:

– ها قد أقبل الليل. تعالَ بنا نجول في المدينة متنكرين. أتريد.

فأراد.

وأسرعت هي إلى النافذة فأطلت على الميدان العام وقالت:

– أرى سائلاً نائماً إلى جنب حائط القصر. أذهب إذن فأعطه ثيابك وخذ بدلاً منها تلك العمامة المنسوجة من صوف الجمل وذاك الكساء الخشن الذي يستر عورته. عجل في هذا فإني ذاهبة لأتأهب.

ثم فرَّت من قاعة الوليمة وهي تصفق فرحاً.

تخلى بلتازار عن ثوبه الكتاني المطرز بالذهب واحتزم بكسوة السائل فصار كأنه عبد محقق. ولم تلبث بلقيس أن ظهرت في سربال أزرق غير مخيط مثل الذي ترتديه النسوة العاملات في الحقول وقالت:

– هيا بنا.

فجررت بلتازار في دهاليز ضيقة حتى أنتهت إلى باب صغير يؤدي إلى الحقول.

٢

كان الليل دامساً. وكانت بلقيس صغيرة ضئيلة في الظلام. فسارت برفيقها إلى حانة يغشاها السوقة والعاهرات. وهناك جلسا إلى منضدة في زاوية المكان، وأبصروا في ضوء مصباح قذر بجماعة من الأفظاظ يتلاكمون ويتضاربون من أجل امرأة أو من أجل قدح من الخمر. ثم وقع نظرهما على آخرين يغطّون في النوم تحت المناضد. وكان هواء القاعة كثيفاً تسطع فيه رائحة ذفرة.

ورأت بلقيس أسماكاً مقددة معلقة في السقف، فقالت لبلتازار:

– أريد أن آكل واحدة من هذه الأسماك ومعها بصل مدقوق..

فأمر لها بلتازار بما أرادت. وبعد أن أكلت خطر بباله أنه لمجيء معه بدراهم، فلم يأبه لذلك وحسب أن في أستطاعته الخروج مع رفيقته من دون أن يؤدي ما عليه. ولكن صاحب الحانة سدّ عليهما الطريق وجعل بوسعهما سباً، ناعتاً بلتازار بالعبد الوغد، وبلقيس بالحمارة الخبيثة. فلكمه بلتازار لكمة طوحت به على الأرض. وعندئذ هب الشاربون رافعين المدى، للأنقضاض علة ذينك الغريبين. ولكن شاء الحظ أن عثر بلتازار على مدقة هائلة، جُعلت لدق البصل المصري، فتناولها وضرب بها إثنين من الهاجمين فسقطا لا حراك بهما، ولجأ الآخرون إلى الحانة فأعتصموا بها. وكانت بلقيس في تلك الأثناء لابدة برفيقها، وحرارة جسمها تسري إليه فتبعث فيه بأساً لا يُقهر. ولما لم يجسر رجال الحانة

على الدنو منه، شرعوا يقذفونه بكل ما كان يقع تحت أيديهم من أقداح وقدر ومصابيح موقدة، بل أنهم رفعوا أمر جلا هائلا كان يُنضج فيه خروف بتمامه وألقوه في الهواء فسقط بدوىّ شنيع على رأس بلتازار وشجّ جمجمته. فلبث باهتاً زمناً يسيراً ثم أستجمع قواه وردّ المرجل بكل ما أوتي من شدة حتى صار وزنه أضعافاً مضاعفة، فكانت له صدمة قاصفة قد خالطتها صرخات الألم وحشرجة الموت. ووجد بلتازار من ذعر الباقين على الحياة نهزة للفرار برفيقته، خوفاً عليها من أن تمس بأذى. فأخدها في ذراعيه وانطلق في أزقة مظلمة قفراء. وكان الليل قد شمل الأرض بصمته وأخذت تخفت في آذان الفارين جلبة الشاربين الذين كانوا يقتفون أثرهما على غير هدى في الظلام. ثم ما لبثا أن انقطع عنهما كل صوت، إلا صوت قطرات الدم المتساقطة من جبهة بلتازار عى جيد بلقيس.

فهمهمت الملكة:

– إني أحبك.

وطلع القمر من وراء السحب، فرمق الملك في عين بلقيس وميضاً نادياً أبيض يتلألأ بين أجفانها المسبلة.

وكان بلتازار ينحدر في مسيل غدير ناضب. وإذا به قد زلقت قدمه فوقع الإثنان على العشب متعانقين. وخيل إليهما أنهما قد هويا في هوة لذيذة لا فرار لها. فغرب عنهما عالم الأحياء، وظلا يتذوقان سحر نسيان

الزمن والعدد والمكان، حتى جاءت الغزلان في بزوغ الفجر تشرب من جوف الأحجار.

وفي تلك اللحظة مرّ جماعة من اللصوص وأبصروا بالعاشقين نائمين على العشب فقالوا:

– أنهما فقيران ولكنهما في شرخ الشباب وهما على حسن ونضرة، فنحن من أجل هذا نستطيع أن نستام بهما عند البيع.

فدنوا منهما وأوتقوهما ثم ربطوا وثاقهما بذنب حمار ومضوا في طريقهم.فطفق بلتازار يرغي في وثاقة منذراً متوعداً. أما بلقيس، وقد أخذتها رعدة من نسيم الصباح فكانت كأنها تبسم لشيء وراء الغيب.

وما زالا يسيران على هذا الحال حتى متع النهار وأشتد حره. وكانت الشمس في كبد السماء حين فك اللصوص عقالهما، فأجلسوهما بقربهم في ل صخرة وألقوا إليهما كسرة من الخبز معفنة، عافها بلتازار مترفعاً، فألتقطتها بلقيس وأخذت تقضمها بشره وهي تضحك. فلما سألها زعيم اللصوص عن سبب ضحكها قالت:

– أضحك لعلمي أنني سآمر بشنقكم جميعاً.

– أحقاً ما تقولين! أنه يا صاحبتي لحديث غريب في فم امرأة مثلك مهنتها غسل الأواني. ولا بد أنك تهتمدين على ضجيعك الأسود هذا في تنفيذ أمرك بشنقنا جميعاً.

فتار ثائر بلتازار لهذه الإهانة وأنقض على اللص فحصر عنقه وشدد عليه حتى كاد يخنقه. ولكن اللص طعنه في بطنه بمدية كانت معه فتدحرج الملك المسكين على الأرض موجهاً إلى بلقيس نظرة آفلة لم تلبث أن خبت وطفئت.

٣

وإذ ذاك طرقت الأسماع جلبة رجال وخيل ورماح، فعرفت بلقيس أن قائدها "أبنير" مقبل على رأس الحرس لإنقاذ مولاته. وكان قد علم من أمسه باختفائها الغريب.

فسجد ثلاثاً عند قدمي بلقيس ثم أمر بالهودج المعدّ لها. وكان الحراس في تلك الأثناء يوثقون اللصوص فألتفتت الملكة إلى زعيمهم وقالت في دعة:

– أنت لا تستطيع الآن يا صاحبي أن تقول بأنني كنت هاذية حين وعدت بشنفكم.

وكان المجوسي "سمبوبيتيس" والخصى "منقرع" إلى جنب "أبنير" فصرخا صرخة عالية حين أبصرا بمولاهما ملقى على الأرض لا حراك به والمدية في بطنه، فهرعا إليه. وكان "سمبوبيتيس" حادقاً في فن الطب ففحص الملك ورأى أن به رمقاً من الحياة، فبادر إلى تضميد جرحه،

بينما كان "منقرع" يمسح الزبد من على فمه، ثم حمله الأثنان برفق وربطاه على ظهر فرس وسارا به الهوينا حتى قصر الملكة.

ظل بلتازار خسة عشر يوماً ف هذيان عنيف. فكان لا يفتر عن ذكر المرجل المتدخن وعشب الغدير، صائحاً ببلقيس في كل آونة. وفي اليوم السادس عشر فتح عينيه فرأى حوله "سمبوبيتيس" و"منقرع" ولم ير الملكة.

فسأل في قلق:

– أين هي؟ وماذا تعمل؟

فقال "منقرع":

– هي مختلية بملك "كوماجين".

وأضاف الحكيم "سمبوبيتيش":

– لا بد أنهما يتعاهدان على تبادل السلع. إنما هدىء من روعتك يا مولاي لئلا تتضاعف الحمى.

فصاح بلتازار:

– أريد أن أراها.

ثم أندفع إلى جناح القصر الخاص بالملكة، دون أن يقوى الشيخ أو الخصى على الوقوف في سبيله. فلما أنتهى إلى غرفة النوم أبصر بملك "كوماجين" خارجاً منها، مشرقَ الوجه والذهب يتوهج على ثيابه.

وكانت بلقيس! يا زهيرتي!

غير أنها تلتفت إليه وظلت كأنها تمدّ حلماً لذيذاً.

فتقدم بلتازار وأخذ يدها، فجذبتها منه بعنف قائلة:

– ما الذي تبغيه مني؟

فقال الملك الأسود ووقد ذرفت دموعه:

– تسأليني عن ذلك!

وقد وجهت إليه نظرات مطمئنة قاسية، أدرك منها أنها نسيت كل شيء. فجعل يذكّرها بليلة الغدير، ولكنها لم تسمع إليه، وقالت:

– الحق يا مولاي أنني لا أعرف ما تريد أن تقول. إنما يلوح لي أن نبيذ النخل لا يلائمك. فلا بدّ أنك رأيت حلماً.

فصاح الملك التعس:

– كيف! قبلاتك والمدية التي تركت فيَّ أثرها، أكان كل ذلك في حلم!..

فقامت الملكة وقد أصطكت جواهر ثوبها فكان لها خشخشة كصوت البرَدَ وبريق كبريق النجوم. ثم قالت:

– مولاي. لقد حانت الساعة التي ينعقد فيها مجلسي، وليس لديَّ متسع من الوقت لتفسير الأحلام التي تدور في رأسك المعتل. فنصيحتي لك أن تخلد إلى الراحة وسلام عليك.

فأحس بلتازار بقواه تخذل عنه، ولكنه تماسك حتى لا يبدو علي الوهن أمام هذه المرأة القاسية، ثم هرول إلى حجرته وهناك خر مغشياً عليه وقد أنفتح جرحه.

لبث بلتازارثلاثة أسابيع فاقد الحس مشرفاً على الموت، ثم عاودته الحياة في اليوم الثاني والعشرين، ورأى تابعيه ساهرين عليه، فأمسك بيد الشيخ وصاح باكياً:

– صديقيَّ. أنكما لسعيدان كلاكما. أحدكما لأنه شيخ والثاني لأنه شبيه بالشيوخ. ولكن لا سعادة في العالم. وكل ما فيه ذميم ما دام الحب شراً وبلقيس شريرة.

قال المجوسي:

– الحكمة تجعل المرء سعيداً.

فقال بلتازار:

– سأختبرها. إنما هلمّ بنا نسافر حالاً إلى أتيوبيا.

واعتزم بلتازار أن ينقطع إلى الحكمة ليغدو مجوسياً. فكان يجلس كل مساء على سطح قصره في صحبة "سمبوبيتيس" و "منقرع". فيقضي ساعات طويلة وهو يتأمل أغصان النخل ساكنة في الأفق، أو ينظر في ضوء القمر إلى التماسيح طافية على النيل كأنها جذوع أشجار.

قال "سمبوبيتيس" ذات ليلة:

– إن الإنسان لا يمل من التأمل في الطبيعة.

فقال الملك:

– لا شك في ذلك. ولكن في الطبيعة أشياء أجمل من النخل والتماسيح.

قال هذا لأنه ذكر بلقيس.

فأجاب "سمبوبيتيس" وكان شيخاً فانياً.

– نعم هناك ظاهرة فيضان النيل، وهي ظاهرة عجيبة قد رقّقتُ إلى إدراك أسبابها. وهل جُعل الإنسان لغير الفهم والإدراك؟

قال الملك متنهداً:

– بل جعل للحب. إن في العالم أشياءً لا يدركها العقل.

فسأل الشيخ:

– وما هي:

أجاب الملك:

– خيانة المرأة.

بيد أن بلتازار، وقد أستقر على أن يكون مجوسياً"[1]"، أمر ببناء برج عظيم ينيّف على كل الأبراج الأخرى، ويشرف الناظر من فوقه على مالك عدة وكل فضاء السماء. فلم يتم بناء هذا البرج في أقل من سنتين. وأستنفذ بلتازار في سبيل إقامته كل المال الذي أدخره أبوه.

ثم شرع الحكيم "سمبوبيتيس" يعلمه علم النجوم. فكان من أجل ذلك يرتقي به كل ليلة إلى قمة البرج ليرقب معه السماء، ومن بين

---

١) المجوس قوم في التاريخ كانوا يعبدون الشمس أو النار. وربما أطلق المجوسي على الساحر والحكيم والفيلسوف.

الحقائق المفيدة التي كان يلقنه إياها أن الكواكب مثبته كالمسامير في قبة السماء، وبعضها ذكور وبعضها إناث، وأنها رموز تنبئنا بما قدّر لنا من خير وشر.

فيجيب الملك:

– ولكنك تسلم بأنها رموز غامضة. غير أن دراستها تنحى عني ذكرى بلقيس، بل تحول دون ذهاب فكري إلى شيء أيا كان في العالم. وتلك حسنة للعلوم فهي تمنع الناس عن التفكير. "سمبوبيتيس" علمني العلوم التي تقضي على المشاعر وأنا في مقابل ذلك أرفع قدرك بين شعبي.

ولهذا علمه "سمبوبيتيس" الحكمة. فأقبل الملك عليها حتى غربت عن باله ذكرى بلقيس.

ولاحظ ذلك "منقرع" ففرح فرحاً عظيماً وقال لسيده:

– أنت تعترف الآن يا مولاي بأن الملكة بلقيس تستر تحت ثيابها الذهبية قدمين متشعبتين كأقدام المعيز.

فسأله الملك:

من ذا الذي قص عليك مثل هذه السخافة؟

أجاب الخصى:

– هكذا يعتقد الشعب يا مولاي في سبأ وفي إتيوبيا على السواء. فكل الناس يقولون أن للملكة بلقيس ساقين شعراوين، وأن كل قدم من قدميها قد جعلت من قرنين أسودين.

فهز بلتازار كتفيه، إذ كان يعلم أن ساقي بلقيس وقدميها مصوغة كسيقان وأقدام غيرها من النساء. بل هي غاية في الحسن. ولكن هذا الخاطر لم يمر في ذهنه من دون أن يكدر ذكرى التي أحبها من قبل حباً جماً. فزرى على بلقيس أن جمالها لم يكن من غير شائبة في مخيلة الذين يجهلونها. وأضحت نفسه تشمئز، كلما ذكر أنه حظى بأمرأة جميلة الصنع في الواقع، إلا أنها مسيخة في أوهام العامة. فلم يعد يرغب في أن يراها ثانية. لقد ان بلتازار بسيط القلب في حين أن الحب عاطفة كثيرة التعقيد.

ومن ذلك اليوم أخذ الملك يتقدم تقدماً سريعاً في السحر والتنجيم حتى توصل إلى أستطلاع الطوالع بأحكام عظيم. فقال يوماً لمعلمه:

– أتقسم برأسك أن أستطلاعي صادق؟

فأجاب "سمبوبيتيس":

– العلم معصوم عن الزلل ولكن العلماء يخطئون على الدوام.

وكان بلتازار على ذكاء فطري رائق فقال:

– لا حقيقة فيما عدا الآلهة، ولما كانت حقائق الألهة مستترة عنا فنحن إنما عبثاً نطلب الحقيقة. على أني قد كشفت نجماً جديداً. ما أجمل هذا النجم! فكأنما تدب فيه الحياة، وكأنما وميضه نظرات مقلة سماوية. إني إخاله يناديني. يا لسعادة من يولد تحت هذا النجم! "سمبوبيتيس" أنظر كيف يرمقنا هذا النجم اللامع الخلاب.

ولكن "سمبوبيتيس" لم ير النجم أو لم يشأ أن يراه لأنه كان لا يحب الجديد شأن كل عالم وكل شيخ.

فردّد بلتازار وحده في صمت الليل:

– يا لسعادة من يولد تحت هذا النجم!

٤

ذاع في كل أتيوبيا وفي الممالك المجاورة لها أن الملك بلتازار لم يعد يحب بلقيس. فلما أنتهى الخبر إلى ملكة سبأ، حنقت على بلتازار، كأنما هو قد خان لها عهداً. وهرعت إلى ملك "كوماجين" الذي كان لا يزال مقيماً في سبأ، ناسياً شؤوون مملكته، فقالت:

– أتدري يا صاحبي ما الذي وصل الآن إلى علمي؟

أن بلتازار لم يعد يحبني.

فقال الملك باسما:

– هذا لا يهمنا ما دام حبنا باقياً.

قالت بلقيس:

– ولكن ألا تشعر بالإهانة التي تلحقني من وراء هذا الأسود؟

أجاب الملك:

– كلا لست أشعر بها.

فطردته شر طردة وأمرت وزيرها بإعداد العدة لرحلة إلى إتيوبيا، قائلة له:

– لقد عزمت على السفر هذه الليلة. فإذا لم يكن كل شيء مهيأ قبل غروب الشمس أمرت بقطع رأسك.

ولما أن صارت وحدها أجهشت بالبكاء وهي تردد من صميم قلبها:

– إني أحبه! هو لم يعد يحبني وأنا أحبه!

وفيما كان بلتازار على برجه ذات ليلة، يرقب النجم العجيب هبط نظره إلى الأرض، فرأى على بعد خيطاً طويلاً أسود يتعرج على رمل الصحراء كأنه جيش من النمل. وأخذ هذا الذي يظنه نملاً يكبر شيئاً فشيئاً حتى وضح بعض الوضوح، فإذا هي خيل وجمال وقبلة. وما لبث بلتازار أن أستعرف حرس ملكة سبأ برماحهم البراقة وخيولهم الدهماء. ثم رأى بلقيس نفسها، فتملكته اضطرابة شديدة وشعر بأنه لا بد واقع في حبها من جديد. وكان النجم العجيب يتلألأ في السماء، وبلقيس على الأرض ضاجعة في هودج من الأرجون والذهب، صغيرة متلألأة كالنجم.

فأحس بلتازار بقوة هائلة تجتذبه إليها، ولكنه لفت عنها رأسه بجهد عنيف ورفع عينيه فرأى النجم. وحينئذ تكلم النجم فقال:

«سلام على من صحت عزيمته من الناس. أيها الملك الوديع بلتازار، خذ صاعاً من المر وأتبعني لأسير بك إلى قدميّ الطفل الذي وُلد الساعة في حظيرة البهائم بين الحمار والثور. وهذا الطفل الصغير هو ملك الملوك، يهب العزاء لمن يبغى عزاء. وهو يدعوك إليه أنت يا بلتازار يا من له نفس كوجهه مظلمة، لأن قلبك بسيط كقلب الطفل. وقد تخيرك لأنك عانيت آلاماً مبرحة، فهو من أجل ذلك سيمنحك الثراء والفرح والحب. سيقول لك: كن فقيراً في جذل، فذاك هو الثراء الحق. وسيقول لك أيضاً أن الفرح الحق لا يكون إلا في الزهد عن الفرح. وأن لا أحد جدير بالحب سواه، فلا تحب الخلائق إلا فيه».

عند هذه الكلمات فاض السلام على نفس بلتازار، فأشرقت صفحات وجهة القائمة، وأَحس بأنه صار إنساناً جديداً. وكان "سمبوبيتيس" و"منقرع" ساجدين إلى جنبه يعبدان النجم.

لبثت بلقيس برهة ترقب بلتازار حتى أدركت أن ليس لحبها مكان في هذا القلب الذي شغف بالعبادة، فأمتقعت من الغيظ وأمرت أتباعها بالعودة فوراً إلى سبأ.

ثم نزل الملك ورفيقاه من البرج فأعدوا صاعاً من المر وأخذوا أهبتهم للرحيل. فساروا أياماً عدة والنجم يسير أمامهم. وصادفوا في طريقهم ملوكاً آخرين من المجوس يقودهم النجم أيضاً إلى الطفل النبي الذي جاء لينشر الحق بن الناس. فواصلوا السير جميعاً حتى إذا وقف النجم عرفوا أن الطفل في هذا المكان.

ولما دخلوا البيت وجدوا الطفل في حجر مري أمه، فسجدوا عند قدميه وقدموا له ذهباً ومراً ولباناً كما جاء في الإنجيل.

الآنسة روزان

كان الراهب "جيروم كوانيار" أستاذاً للأدب، ثم إعتزال مهنته مكرها لأسباب ليس هنا موضع ذكرها. فجعل يجوب البلاد مشتغلاً بأعمال ضئيلة الجزاء، حتى صار مؤدباً للشاب "جاك تورنبروش". فلما مات الراهب عنى تلميذه "تورنبروش" هذا بنشر آرائه الغريبة ونوادره. ومن بين ما نشر عنه هذه القصة التي ننقلها هنا.

صحبتُ أستاذي الراهب "جيروم كوانيار" ذات ليلة للعشاء معه عند أحد زملائه القدماء، وكان يقطن في غرفة من غرف السطوح بشارع "جي لكور". كان مضّيفنا راهباً غزير العلم، قد أختلف يوماً مع رئيس ديره من أجل كتيّب كتبه عن "شقوات الآنسة فانشون". فكان من جراء ذلك أن أصبح الراهب خادماً في أحد مطاعم "لاهاي"، ثم عاد إلى فرنسا. وهو الآن في شظف من العيش، لا مورد له إلا من طريق إنشاء المواعظ الدينية التي يبث فيها جليل حكمه وسحر بيانه. وقد قرأ لنا بعد العشاء "شقوات الآنسة فانشون" التي كانت علة شقوته، فأستغرقت القراءة زمناً طويلاً، ثم خرجنا أنا وأستاذي من عنده.

وكانت الليلة من ليالي الصيف الرائعة، وقع جمالها في نفسي فأدركت صدق الأقاصيص التي تصف زلاّت "ديان" رّة الصيد، ووجدت طبيعياً أن يطيب العشق في هذه الساعات الفضية الصامتة.

أفضيت بهذه الخواطر إلى سيدي الراهب "كوانيار" فأعترض عليّ بأن الحب مجلبة للأَلم، ثم قال:

– أما سمعت منذ قليل من فم ذلك الراهب الحكيم، كيف أن الآنسة "فانشون" كان مآلها المستشفى من أجل أنها أحبت جندياً، ثم عاملا عند السيد "جولو" تاجر الخردوات، ثم أصغر أبناء القاضي "ليبلان". فهل وددت أن تكون ذلك الجندي أو ذاك العامل أو ذلك الأبن الأصغر للقاضي؟

أجبت بأني أوّد لو كنتُ أحد هؤلاء. فأرتاح أستاذي لهذا الأعتراف، وطفق يتلو عليَّ أشعاراً من شعر "لوكريس" ليلقى في خلدي أن الحب نقيض الهدوء الذي تبتغيه النفوس الفلسفية الحقة.

ولم نزل نتحدث بمثل هذه الأحاديث، حتى بلغنا ميدان "الجسر الجديد". فأعتمدنا على حاجز الجسر وذهب بصرنا إلى سجن "الشاتليه"، وكان برجه العظيم يلوح قائماً في ضوء القمر. فقال أستاذي متأوهاً:

– أنظر يا بني "تورنبروش" إلى عدالة هذه الشعوب المتمدينة. ألا ترى أن انتقامها أشد قسوة من الجريمة نفسها؟ إني لا أخال هذا العذاب الذي يحمّله الإنسان للإنسان لازماً لحفظ كيان الأمم. فها هي تي الجمهورية تبطل من حين إلى حين بعض صنوف هذه القسوة المشروعة دون أن يلحقها أذى من جراء ذلك. وعندي أن ضروب الغلطة التي لا تزال قائمة ليست أنفع من التي هجرت. ولكن الناس جبلوا على القسوة. تعالَ بنا يا بني إذ يؤلمني أن أتمثل حال أولئك التاعسين الساهدين وراء هذه الجدران، الغارقين في الغم والقنوط. وليس ذكر جرمهم بحائل دون الرثاء لهم. فمن منا سوىّ منصف؟

ثم أخذنا في المسير، وكان الجسر مقفراً إلا من سائل وسائلة، تلاقيا عليه فقبعا في زاوية من رحبته، وكأنهما قد وجدوا بعض السرور في جمع شقائهما، فمررنا بها وهما في سلوى عن أستجدائنا. غير أن أستاذي– وكان أرحم الناس قلباً– لم يفتهُ أن يلقى إليهما بقطعة من الفضة، أظنها كانت باقية وحدها في جيبه، قائلاً:

– سيلتقطان هذا العطاء إذا ما عادا إلى الشعور ببؤسهما. فعسى أن لا يكون نزاعهما من أجل هذه القطعة شديداً عنيفاً.

ومضينا في طريقنا على ضفة "السين" نتحدث بشتى الأمور، وإذا فتاة تمشي وعليها أمارات عزم غريب. فأسرعنا الخطى حتى نلحظها عن

كثب، فوجدناها ذات خصر رقيق وشعور ذهبية تتلألأ في ضوء القمر. وكانت في زيّ أهل الطبقة الوسطى. فقال أستاذي:

– هذه فتاة جميلة. ولكن كيف وُجدت وحدها خارج الدار، في مثل هذه الساعة من الليل؟

قلتُ: وهي ليست ممن يصادفن عادة على الجسور بعد أطفاء الأنوار.

ولم نلبث أن أستحالت دهشتنا إلى قلق وروعة حين رأيناها تنحدر إلى حافة النهر من سلم صغير يطرقه الملاحون عادة. فهرعنا إليها. ولكنها لم يبدُ عليها أنها أحست بنا. فوقفتْ على شفا الماء الذي كان عالياً، يُسمع له في جوف الليل خرير أصم مخيف. ولبثتْ برهة لا حراك بها، رافعة رأسها، مرخية ذراعها كمن هو في يأس. ثم مالت بجيدها الجميل فسترت وجهها بيديها، وما هي إلا بضع ثوان حتى رأيناها تجمع أذيالها بغتة كأنها تتأهب للوثوب. فأدركناها وهي تهم بهذه الوثبة الشنعاء، واجتذبناها بشدة إلى الوراء. فجعلت تناضل في سبيل التملص من أيدينا. ولما كان الشاطيء طامياً زلقاً، أوشكنا في هذا العراك أن نمضي جميعاً في النهر. ولكن شاء الحظ أن صادفتْ إحدى قدميّ جذر شجرة فأستقرت عليه وأنا ممسك بخير الأساتذة وهذه الفتاة البائسة بين ذراعية. ثم ما لبثت الفتاة أن أعياها الجهد ووهن منها العزم، فانقادت إلينا وصعدنا بها إلى الشارع. وقد أسندها سيدي الراهب

"كوانيار" بلطفه الميسور، الذي لم يفارقه لحظة، وسار بها إلى جذع شجرة كبيرة حيث كان مقعد من الخشب، فأجلسها عليه وجلس هو أيضاً ثم قال لها:

– لا تخافي شيئاً أيتها الآنسة، ولا تقولي شيئاً الآن. إنما أعلمي أن صديقاً إلى جنبك.

ثم ألتفت إليَّ وقال:

– يجب أن نغتبط يا بني "تورنبروش" بمآل هذا الحادث الغريب. غير أني تركت هناك على الشاطيء قبعتي التي لا تزال مع طول عهدها وبلاها تقي من الحر والمطر رأسي الذي نالت منه الشيخوخة وصروف الأيام. أذهب يا بني وفتش عنها وعن قفل أحد نعليّ الذي رأى أنني فقدته. أنا أنا فسأبقى إلى جنب هذه الفتاة شاهراً على راحتها.

فأسرعت إلى المكان الذي جئنا منه ووفقت إلى العثور على قبعة أستاذي الجليل. أما القفل فلم أحد له أثراً. على أني في الحق لم أعنَ بالبحث عنه، إذ أني لم أرَ قط لأستاذي سوى قفل واحد في نعليه. ثم عدت إلى الشجرة فوجدت الفتاة جالسة لا تتحرك، ورأسها مسند إلى جذع الشجرة.

فتبين لي أنها على جمال رائع. وكانت ثيابها من الحرير المطرز، حسنة الصنع، غاية في النظافة. وفي قدميها حذاءان أنيقان تنعكس على قفليهما أشعة القمر الفضية.

ولن أملّ من النظر إليها. وإذا بها قد أنتعشت عيناها الذابلتان بغتة، فألقت علينا نظرة لا تزال مغممة بالدموع ثم قالت بصوت خافت

– إني شاكرة لكما صنيعاً دفعتكما إليه المروءة. بيد أني لا أستطيع الأغتباط به. فما الحياة التي ترجعاني إليها سوى شر ممقوت وعذاب أليم.

وكان أستاذي الطيب القلب مصغياً إليها، ودلائل العطف بادية على وجهه. فأبتسم أبتسامة خفيفة عند سماعه كلام الفتاة، لأنه لم يكن يحسب أن الحياة قد تتراءى ذميمة كريهة لفتاة في هذا الشباب وعلى هذا الجمال. فقال لها:

– يا بنيتي أن وقع الأمور في نفوسنا يختلف تبعاً لقرب الأشياء وبعدها. ولم يحن بعد زمن أكتئابك. أنظري إليَّ أيتها الآنسة.. إني مع ما آلت إليه حالي من فعل الدهر العيوب، أحتمل الحياة ولامسرّة لي فيها سوى الترجمة من اليونانية والعشاء مع نفر من الأصدقاء على شيء من نبل الخلق. فهل ترتضين العيش في حال مثل حالي؟

فنرت إليه، وقد تلألأ في عينيها شيء من السرور. ولكنها هزت رأسها، وما لبثت أن عادوتها الكآبة فقالت:

– ليس في الوجود مخلوق بلغ من الشقاء ما بلغتُ.

فقال أستاذي:

– أيتها الآنسة. لقد طبعتُ على أحترام السر. فلستُ أحاول أن أنتزع منك سرّك. إنما يبين واضحاً على سيمتك أنك تتعذبين من جراء حب. وهذا لعمري داء تُستطاع النجاة منه. فإني أنا نفسي قد منيت به في عهد مضى.

ثم أخذ يدها، حادباً عليها مترفقاً بها، ومضى في الحديث قائلاً:

– فليس يحزنني في هذه الساعة سوى شيء واحد، وهو أني لا أستطيع أن أقدم لك مأوى تقضين فيه ما بقى من الليل. فنحن نقيم أنا والشاب تورنبروش الذي ترينه أمامك في قصر قديم بعيد عن المدينة حيث نترجم كتاباً من اليونانية.

وكنا فعلاً نقطن حينذاك عند السيد "داستراك" في قصر "سابلون" الواقع في أرباض باريس إذ كنا أجيرين لهذا الساحر العظيم الذي مات بعدُ ميتة شنعاء.

ثم قال أستاذي للفتاة:

– مع هذا أن كان ثمة مكان تعلمين أن في وسعك الذهاب إليه، فليس شيء أهون عليّ من أصطحابك إليه.

فقالت الفتاة إن هذه الرأفة بها قد وقعت في نفسها، وأنها تقيم عند قريبة لها وتستطيع العودة إلى البيت في أية ساعة أرادت، غير أنها تؤثر ألاّ تعود قبل طلوع النهار حتى لا تزعج الناس في نومهم، وحتى لا يعادوها الألم عند رؤية الأشياء التي اعتادت أن تراها.

قالت هذا والدمع ينهمر غزيراً من عينيها.

فقال أستاذي:

– أعطيني منديلك أيتها الآنسة، أمسح به عينيك. وسأذهب بك بعد ذلك إلى أروقة سوق "الهال" حتى يصبح الصباح. فهناك نجد راحة في الجلسة ونكون في حرز من طل الليل.

فأبتسمت الفتاة في دموعها وقالت:

– إني لا أريد أن تكابد هذا العناء من أجلي، فأمضِ في طريقك يا سيدي مزوداً بأطيب الشكران.

بيد أنها وضعت يدها على ذراع أستاذي حين قدمها إليها، وسرنا نحن الثلاثة في طريق "الهال". وكان الليل قد اشتدت برودته وبدت في اسماء صبغة لبنية، فأخذت نجومها تخبو متضائلة. قم أنقطع سكون

الليل وبدأت عربات الخضر تكر نحو السوق وراء خيل متباطئة متناعسة. فلما بلغنا أروقة الهال انتقينا مكاناً أمام باب حانوت، ففرش أستاذي معطفه على درجة من البلاط وأجلس الفتاة عليه وجلسنا إلى جانبها.

ثم تبسط أستاذي في الحديث وطفق يتكلم في موضوعات متنوعة، ماجناً متفكهاً، رجاء التسرية عن الفتاة وإزاحة الصور السوداء التي تكتنف نفسها. وقال لها أنه يعدّ هذه المصادفة أثمن ما صادف في حياته، وأن قلبه سيحمل أعز ذكر لهذه الفتاة التي تحرك لها عطفه. وقد تحاشى أستاذي في حديثه أن يسألها عن أسمها وقصتها، ولعله أراد أن تبوح الفتاة من تلقاء نفسها بما لم يسألها عنه.

فهطل دمعها من جديد ثم تنهدت وقالت:

– لا يجمل بي يا سيدي أن أجيب بالصمت على مروءتك. لست أخشى شيئاً من وراء أطلاعك على حقيقتي. فإسمي "صوفي ت ..."، ولم يخطيء حدسك فإن الذي دفعني إلى هذا اليأس هو غدر خليل كنت أحبه كثيراً. وإذا ما حكمتَ بأني مفرطة في الأسى، فذلك لأنك لا تعلم إلى أي حد كانت تذهب ثقتي بذلك الخليل واستسلامي إليه. ولإنك تجهل من أي حلم فتان قد أنتزعتني تلك الخيانة.

ثم شخصت إلينا بعينيها الجميلتين ومضت في الحديث قائلة:

– ولستُ كما قد تصورني لكما هذه المصادفة الغريبة. فقد كان أبي تاجراً فذهب في تجارته إلى أميركا ولكنه أودى غرقاً في عودته، وضاعت سلعته معه، فأثر فقدانه في أمي حتى ماتت كمداً وتركتني طفلة إلى عمة لي هي التي عنيت بتربيتي. وظللت على جادة الطريق حتى صادفت ذاك الذي عرفت في حبه نعيماً ليس بعده نعيم، قد تلاه هذا اليأس الذي تریاني فيه غارقة.

وعند هذه الكلمات سترت الفتاة عينيها بمنديلها ثم عادت إلى الحديث متنهدة فقالت:

– وكانت مكانته الاجتماعية فوق مكانتي بكثير، فلم أطمع في أن أكون له في غير الخفاء، ولكني كنت أعلل النفس بوفائه وبقائه على العهد. فقد كان يقول لي إنه يحبني، ولم يجد عناء في إقناعي بما كان يقول، وعلمت عمتي بعلاقتنا فلم تقف في سبيلها، لأن منزلتي من قلبها كانت توهن من عزمها، ولأنها قد خلبتها مكانة خليلي. فعشت سنة في غفلة من الزمان. ثم ها هي سعادتي تتبدد في لحظة. فإنه جاء هذا الصباح إلى بيت عمتي حيث أقيم وطلب أن يراني، وكان قلبي يحدثني بسوء منذ تنبهت من النوم. فكسرتُ وأنا أتمشط مرآة أهداها إليَّ من قبل. وزاد قلقي عند رؤيته، إذ رأيت لأول وهلة علامات الوجم بادية على وجهه. آه يا سيدي! هل في الوجود حظ مثل حظي؟

وأغرورقت عيناها بالدموع فمسحتها وأستطاعت أن تتم حديثها فقالت:

– أخبرني في فتور لم يخل من الحيرة إنه مزمع على السفر للالتحاق بالجيش، وأن أسرته حتمت عليه أن يعقد خطبته قبل سفره على ابنة لأحد كبار الماليين، إذ كانت هذه الصلة لازمة لنجاحه، خلا إنها تعود عليه بثراء وافر، يستطيع معه الأحتفاظ بمكانته والظهور بين الطبقة الرفيعة من الناس. قال الوغد هذا بصوته العذب الذي طالما ردَّد في أذني كلمات الحب وأيمن الوفاء. وأضاف متغاضياً عن شحوب وجهي أن علاقته الجديدة لن تسوّغ له رؤيتي على الأقل لزمن ما. ثم قال إنه ما برح يكنّ لي في قلبه وداداً، وسألني أن أتقبل منه مبلغاً من المال تذكاراً لأيام قضيناها معاً. وعند ذلك قدم لي كيساً.

«سيديَّ. لست أكذب إذا ما قلت لكما إنه أراد غير مرة أن يهدي إليَّ أثاثاً وآنية، وأن يأخذني إلى بيت جميل له في أرباض المدينة، فلم أشأ قط أن أطاوعه في شيء ما أراد. لأني أحببت أن لا تربطنا صلة غير صلة القلب. فكنت أفخر بأنني لا أملك منه سوى بعض الحلى، وهذه لم يكن لها قيمة عندي إلا من حيث مأتاها. ولذا كانت رؤية الكيس في يده مثاراً لحنقي، فشددتني على طرد هذا المخاتل الدنيء من أمامي بعد أن وضح لي أمره في برهة، فأصبحت أمقته وأزدريه. ولكنه أحتمل نظرات سخطي ساكناً وجعل يؤكد لي في هدوء إنني لا أدرك شيئاً من الفرائض التي تملأ حياة رجل من ذوي المكانة، وأضاف إنه يؤمل أنني متى هدأ

ثائري أنظر إلى سلوكه نظرة أنصاف. ثم وضع الكيس في جيبه قائلا إنه يعرف كيف يؤدي إليَّ ما حوى من طريق لا أستطيع معه الأمتناع عن قبوله. ولا شك في أنه عدّ ذلك وسيلة لتبرئته. فانتحى صوب الباب الذي كنت أشير إليه بإصبعي صامتة. ولما بقيت وحدي شعرت بهدوء دهشت له أنا نفسي. وكان منشؤة إنني عقدت العزم على أن اموت. فأرتديت ثيابي بشيء من العناية، وكتبت إلى عمتي أطلب منها الصفح عن إيلامي إياها بموتي. ثم خرجت إلى المدينة، فسرت هائمة على وجهي ما بقى من النهار وشطراً من الليل، أجتاز الشوارع الآهلة والمقفرة غير شاعرة بتعب. وكنت أوخر إنفاذ قصدي حتى يكون لي من ظلام الليل وعزلته معين على بلوغ غايتي. ولعلي أيضاً– لضعف فيَّ– كان يحلو لي أن أتمثل موتي متذوقة أسيف الفرح بإفلاتي من العذاب. وفي الساعة الثانية من الصباح نزلت إلى حافة النهر. وأنتما تعلمان ما بقي. فقد انتزعتماني من الموت. وأنا شاكرة لكما هذه المروءة، غير إني لست مقتنعة بنتائجها، فإن الفتيات اللواتي خلفهن الهجر يملأن العالم. وكنت أود أن لا أزيدهن واحدة.

قالت الفتاة ذلك ثم صممت وجعلت تذرف الدمع من جديد. فأخذ أستاذي يدها مترفقاً بها كل الرفق وقال:

– يا بنيتي لقد وقعت قصتك في نفسي. والحق إنها موجعة. ولكني سعيد إذ أرى أن جرحك مستطاع شفاؤه. فقد وضح لي أن خليلك هذا لم يكن قط أهلاً للمنزلة التي أحللته بها من قلبك. وإنه

كشف عند الأختبار عن أثرة وغلطة. وتبين لي عدا ذلك أن حبك له لم يكن سوى انعطاف طبيعي وفعل من فعال حسك، ليس فيه لمن أحببتِ أثر عظيم كما تتوهمين. وإن ما في هذا الحب من سمو وندرة كان صادراً منك. لم يضع إذن شيء، ما دام النبع باقياً. فعيناك اللتان بعثتا بأجمل الأضواء، على وجه لا شك في أنه عاديّ شائع، لن تقصرا عن إرسال أشعة الوهم الخلاب في ناحية أخرى.

وواصل أستاذي الحديث فجرى في فمه أعذب الكلام عن همزات الشهوة ومضلة العاشقين. وفيما هو يتكلم مالت الفتاة برأسها الجميل على صدره وأخذها النعاس رويداً. فأغتبط سيدي الراهب "كوانيار" إذا أستطاع بحديثه أن يدخل السلام إلى هذه النفس الثائرة، فقال:

– لا مرية في أن كلامي يفعل في النفوس فعلاً ناجعاً. ثم أخذ كل حيطه لا يزعج الفتاة في نومها، وألتزم مواصلة الحديث مخافة أن يوقظها الصمت فقال:

– "توربروش" يا بني ألا ترى أن آلامها قد تبددت مذجلا أثرها عن بالها؟ تلك لم تكن إذن سوى أوهام لا وجود لها إلا في مخيلتها، وهي ترجع إلى ضرب من الأنفة يلازم الحب فيجعله عنيفاً. فلو أننا أحببنا في أتضاع خلو من الأثرة، ارضينا بما يمنح لنا، ولما عددنا ازدراء الغير إيانا خيانة. وإذا ما بقى لنا من الحب بقيه بعد هجر، أستطعنا أن ننتظر في هدوء حتى يتاح لنا إنفاقه.

وكان الصبح قد بلج نوره، فأرتفعت سقسقة العصافير حتى غشت صوت أستاذي. فلم يحنق عليها وقال:

– لنصغ إلى هذه الطيور إنها في عشقها أكثر حكمة من الناس.

تنبهت صوفي في وضح النهار، فراقني جمال عينيها وقد رسم الإعياء والألم حولهما هالة صدفية دقيقة. وبدا على الفتاة بعض الرضى عن الحياة فلم تتأبَّ حين دعاها أستاذي إلى تناول فنجانة من الشيكولاته على عتبة "ماتورين" البائعة الجميلة التي في سوق "الهال".

غير أن هذه الفتاة المسكينة لم تلبث أن ساورها القلق. إذ كانت كلما رجع إليها شيء من الصواب برزت لها صعاب لم تكن خطرت لها من قبل فصاحت قائلة:

– ماذا أقول لعمتي؟ وماذا هي قائلة:

وكانت عمتها تقطن بإزاء كنيسة "سانت أستاش" على بضع خطوات من سوق "الهال". فسرنا بالفتاة إلى البيت. وتقدم سيدي الراهب "كوانيار" إلى عمتها تبدو عليه سيمة الوقار، وإن كان حذاؤه بغير قفل، فصاغ لها قصة من الخيال، قائلا:

– أسعدني الحظ فلاقيتُ فتاتك وقدهمّ بالهجوم عليها أربعة لصوص مسلحين، فصحت بالعسس صياحاً عالياً أوقع الرعب في اللصوص فولوا هاربين. غير أن الحراس قد لبوا النداء، على خلاف

عادتهم فبادروا إلينا وأدركوا اللصوص فأستحوذوا عليهم بعد معركة حامية الوطيس. وأشتبكتُ معهم أنا أيضاً حتى ظننت أنني فقدت قبعتي في غمرة النزال. ثم سار بنا الشرط إلى دار الضبط، فأحسن الضابط معاملتنا، وأستبقانا في غرفته إلى الصباح ليدوّن شهادتنا.

فقالت العمة في لهجة جافة:

– أشكر لك يا سيدي إذ دفعت عن بنت أخي خطراً هو في الحق أقل ما يعرض لفتاة مثلها تجول وحدها ليلاً في شوارع باريس.

فلم يفه أستاذي بجواب. وقال صوفي مستعطفة:

– أؤكد لك يا عمتي أن سيدي الراهب قد أنقذني من الموت

***

بعد هذا الحادث الغريب ببضعة شهور سافر أستاذي إلى ليون سفرته المشؤومة التي لم يتممها، إذ قُتل غيلة في الطريق، فقاسيت مضضاً لا يدرك حين رأيته يجود بنفسه بين ذراعيّ. وليس هنا موضع لذكر الحوادث التي أحاطت بموته. إنما عنيت بروايتها في مكان آخر لأنها من الحوادث الجديرة بالذكر والتي لا يمحوها النسيان.

وكأن العثار أراد ألا يفارقني في تلك السياحة. فبعد أن فقدت خير الأساتذة هجرتني خليلة لي كانت تحبني، إلا أنها لم تكن تحبني دون

سواي. فكان فقدانها شديد الأثر في نفسي بعد موت أستاذي. ومن الخطأ أن يظن أن القلب إذا نزلت به نازلة أضحى جامداً لا يحسّ بما قد يصيبه من محن جديدة. فهو على الضد من ذلك يتوجع لأصغر الشدائد. ولذا فأنني عدت إلى باريس في حال من الوهن لا يستطاع تصورها.

وأردت ذات مساء أن أسرّى عن نفسي، فذهبت إلى أحد الملاعب. وكانت الرواية رواية "بيازيد". وهي من أجود مؤلفات "راسين". فراقني على الخصوص جمال الممثلة التي كانت تمثل "روزان". وأعجبت بأفتنانها في إداء ما أودع الشاعر قلب فتاة قصته من ولع. وقد أهتزت نفسي حين سمعتها تقول بصوت أغنّ، ينمّ مع ذلم عنْ عاطفة متأججة:

«أصغ إليّ يا بيازيد: إني أشعر بأني أحبك».

ولم أملّ من تطلعها ما بقيتْ على المسرح، مستمتعاً برؤية تينك العينين النجلاوين، ومن فوقهما جبين صاف كالرخام، تكلله شعور ذهبية قد نثرت عليها اللآليء. وكان لها خصر دقيق يحمل الثياب بشمم، فوقع من قلبي موقعاً شديداً.

والذي أتاح لي أن أملأ عينيّ من هذه الغادة الفتانة، أنها كانت تصرف وجهها إليّ عند تلاوة المواضع البارزة من الرواية. وكنت كلما أطلت النظر إليها أزددت يقيناً بأنني رأيتها من قبل، ولكن دون أن أهتدي إلى ظروف تلك المصادفة الأولى. وكان جاري ممن يغشون الملاعب،

فعلمت منه أن هذه الممثلة الجميلة هي الآنسة ب ... التي يعبدها الباريسيون، وأن حظوتها في المدينة تعدل مكانتها في التمثيل. ثم أضاف محدثي أن الذي سما بها فجعل الأبصار ترنوا إليها هو الدوق "ده لا..." وأنها لن تلبث أن تواري الآنسة "له كوفرور".

هممت بالأنصراف عند أنتهاء التمثيل، وإذا بخادمة تؤدي إليّ بطاقة، قرأت فيها هذه الكلمات مخطوطة بقلم رصاص:

«الآنسة "روزان" تنتظرك في عربتها عند باب الملعب».

فلم أصدق أن هذه البطاقة مرسلة إليّ، وراجعت الخادمة لعلها أخطأت الشخص الذي تقصده. فقالت:

– لست مخطئة إن كنت أنت السيد "تورنيروش".

فبادرتُ إلى العربة الواقفة أمام الباب ووجدت فيها الآنسة "روزان" متدثرة بمعطف من الحرير الأسود. فأشارت إليّ تدعوني إلى الدخول. فلما صرت إلى جانبها، قالت:

– ألا تذكر "صوفي" التي أنقذتها من الموت؟

فصحت قائلاً: كيف! أنت "صوفي"... "روزان" الآنسة ب .... هل هذا ممكن؟

وكان أضطرابي متناهياً. فبصرتْ به وكأن قد راقها ذلك. قالت:

– رأيتك في زاوية من الملعب فعرفتك لحيني. ولعبت لأجلك، فأجدت وأبدعت. أتدري أنني غتبطة برؤيتك كل الأغتباط!

وسألتني عن سيدي الراهب "كوانيار"، فذرف دمعها حين علمت أن أستاذي قد مصى لسبيله.

ثم أخذت تحدثني بما جرى لها فقالت:

– كانت عمتي تطرز الثياب للسيدة "ده سان ريمي" التي هي كما تعلم ممثلة بارعة. فذهبتُ إليها ذات يوم أحمل ثياباً، على أثر ذلك الحادث الذي عرفت فيه مروءتك. فقالت لي تلك السيدة أن وجهي وسيم، وطلبت إليّ أن أقرأ لها بعض أشعار، فرأت أني على شيء من الذكاء. وجاءت إليّ بمعلم يعلمني الإلقاء، وقد أنسلكت في التمثيل منذ السنة الماضية، فأحرزت نجاحاً سريعاً يرجع إلى أن ما أن أوديه على المسرح من هوى ودلال قد اختلج في صدري من قبل. ثن أن الدوق "ده لا...." يُظهر لي وداً متناهياً. ولا أحسب أن سينالني همّ من جراء حبه. فقد تعلمت ألاّ أتطلب من الرجال أكثر مما في وسعهم أن يعطوا. وهو الآت ينتظرني للعشاء فيجب أن أذهب إليه.

ولما رأت دلائل الكآبة مائلة في عينيّ قالت:

– ولكني أوصيت أتباعي بالذهاب من أطول طريق والتمهل في المسير.

عصْر جَديد

كانت الساعة نحو الأولى من الصباح. فتحتُ النافذة قبل الذهاب إلى فراشي وأشعلت لفافة. وكان السكون سائداً، لا يقطعه إلا طنين سيارة تمرّ في شارع الغاب "٢" ، أو حفيف الأشجار، تحرك رؤوسها القاتمة، فتبعث في الجو ريحاً بليلة. وكانت أرض الدينة صامتة لا يخرج منها صوت حشرة أو حسّ كائن من تلك الأحياء التي يعمُر بها ثراء الريف.

سرّحتُ طرفي في السماء، فإذا النجوم تتلألأ في ظلمة الليل وتنبعث أضواؤها من خلال هواء شفيف، فتبدو في هذه الليلة صافية متعددة الألوان، فمن نجوم تتقد بنار بيضاء، وهي الأكثر عدّا، إلى نجوم ذهبية، تبرق بريقاً واهناً كأنها مصابيح متضائلة، إلى نجوم زرقاء لامعة زاهية. وقد رأيت بين هذه نجماً صافي الزرقة رائق الماء لطيف الضوء إلى حد أن خلبني فلم أستطع أن أحول عنه بصري. فأسفت لجهلي اسم هذا النجم، ولكني عدت فهوّنت على نفسي إذ ذكرت أن الناس لا يطلقون على النجوم أسماءها الحقّة.

تمثلت أن كل قطرة من هذه القطرات الضوئية تنير عوالم عدة، فتساءلت: تُرى أهي كشمسنا لا تطلع إلا على كروب وأحزان لا حصر لها؟ وهل كان الألم سنّة الحياة، يملأ الكون وتفيض به هوّة الفضاء.

---

٢) غاب بولونيا في ضواحي باريس.

نحن لا نستطيع أن نتصور ما يجرى في تلك العوالم إلا قياساً على ما نشهد في العالم الذي نعيش فيه. ولسنا نعرف الحياة إلا في الصور التي تتشكل بها على الأرض. فإن كانت دنانا أقل من سواها رغداً وخفضاً، فليس لدينا ما يبعث على الظن بأن الأمور تجرى على أحسن حال من العوالم الأخرى، أو القول بأن الإنسان كان يكون في دعة ورخاء بال لو أنه وُلد في ضوء «الجوزاء» أو تحت أشعة «الشعري» المتوهجة، في حين أننا نعلم أن من يفتح عينيه على هذه الأرض في شمسنا العتيقة لا يلقى إلا همّاً ونَصَباً.

لست أشكو سوء حظي. فما أنا بالشقى إذا وازنت بيني وبين غيري من الناس. فلا امرأة لي ولا ولد. وقلبي خلو من الحب، وجسمي خلو من المرض. ولست من الأغنياء، ولا أخالط العظماء. لذلك أحسب نفسي في عداد المجدودين، ولكن هؤلاء لا يصيبون من السرور إلا قليلاً. فما هو إذن حظ الآخرين؟ لعمري إن الناس جديرون بأن يرثى لهم.

إني لا أعتب على الطبيعة، فهي لا تعقل ولا يستطاع التحدث معها. ولست ألوم سنن الاجتماع، فما هذه إلا نتيجة لازمة لقوانين الطبيعة.

الأرض كوكب الآكلين والجائعين، قد طبع ما عليها من حيوان على النهم والأفتراس، وخُصّ الإنسان وحده– وهو أعقلها جميعاً– بالبخل.

والبخل لا يزال حتى يومنا هذا خير فضيلة في الاجتماع الإنساني، وأرفع مثال خلقي دبجته يد الطبيعة. ولو أني كنت كاتباً لكتبت في إطراء البخل. على أن مثل هذا الكتاب لا يكون جديداً في بابه، فقد كتب الأقتصاديون والأخلاقيون في هذا الصدد مئات من المرات. إن البخل والقسوة هما أجلّ الدعائم التي يقوم عليها المجتمع الإنساني.

فهل الحال كذلك في العوالم الأخرى التي تملأ الأثير؟ وهل كل هذه النجوم التي يقع عليها بصري تضيء أناساً؟ وهل يأكلون؟ وهل يفترس الأحياء بعضهم بعضاً إلى مالا نهاية؟ لقد اضطربتُ لهذا الخاطر فلم أعد أستطيع النظر من دون فزع إلى هذه القطرة النارية المعلقة في السماء.

ثم أخذتْ خواطري تصفو وتتضح شيئاً فشيئاً، وتراءت لي الحياة بما فيها من لذائذ، قد تنوع أثرها بين العنف والعذوبة، فأنستُ لها، وقلت في نفسي إن الحياة لا تخلو من بهاء. ولولا ما فيها من جمال لما رأينا لها قبحاً. إذ كيف نستطيع القول بأن الطبيعة ذميمة دون أن نعرف لها حسناً؟

وكان نسيم الليل إليّ منذ برهة نغمات قطعة من موسيقى «موزار "[٣]"» فترددتْ أشعارها في ذهني وتمثلتُ تلك العُمدُ البيضاء قائمة في الهواء، وعليها أكاليل الورد متهادلة. وقد تعودُت سمع هذه النغمات،

---

٣) مؤلف موسيقى نمساوي.

لأن لي جاراً بارعاً في الموسيقى يطيب له في كل ليلة أن يعزف على البيان قطعاً من "موزار" و"جلوك"[٤].

أغلقتُ نافذتي وأخذت أتأهب للنوم. وقد ذهب فكري إلى ما أنا مستطيع غداً أن أمتع به نفسي من ملاذ غير محققة. ثم تذكرت فجأة أنني مدعو للغداء في الغالب. ورجح في ظني أن الموعد هو اليوم المقبل، ولكي أستوثق من ذلك، بحثت عن كتاب الدعوة، فوجدته لا يزال منشوراً على مكتبي، وهذا نصه:

عزيزي دوفرين

يسرني أن تجيء للغداء مع .... إلخ.... يوم السبت الآتي ٢٣ سبتمبر إلخ ....

إذن فالموعد غداً. دققتُ الجرس لاستدعاء خادمي جان وقلت له:

– أريد أن توقظني غداً في الساعة التاسعة.

ويتفق أنني غداً ٢٣ سبتمبر سنة ١٩٠٣ أبلغ من العمر تسعا وثلاثين سنة كاملة. وفي وسعي أن أتمثل على وجه التقريب ما سأراه فس السنين الباقية لي من اليحاة، قياساً على ما رأيت في الماضي. إنما يخيّل إليّ أن الفصول الأخيرة من الرواية سوف تكون تفهة عادية.

---

٤) مؤلف موسيقى ألماني.

من السهل أن أتنبأ بما سيدور عليه الحديث غداً حول المائدة. سيقال حتما: «سيارتي تقطع ستين كيلومتراً في الساعة–"بلانش" سيئة الخلق إلا أنها لا تخون لي عهداً، هذا أمر أنا واثق منه– لقد باتت الوزارة تأتمر بأوامر الأشتراكيين– أراهنك على أن "دبوسا" سيكون السابق في الشوط الأول– نحن بحاجة إلى قائد ذي بطش وحزم ليقضي على كل هؤلاء اللصوص– أي خير يُرجي لفرنسا وقد باعها اليهود للإنجليز والألمان؟».

هذه هي العبارات التي سأسمعها غداً، وهي الآراء السياسية والاجتماعة لأولئك الأصدقاء أحفاد الفرنسيين اذين قاموا بثورة يوليه "٥"، وعرفوا كيف يديرون دفة الأمور، فأضحوا ملوكاً للصناعة والمناجم. ويلوح لي أن أصدقائي لن يستطيعوا أن يصونوا تراث أجدادهم ويحتفظون بسلطانهم في الصناعة والسياسة إلى أمد بعيد. فهم ليسوا جدّ أذكياء، وهم لا يجهدون عقولهم في إعمال الفكر والروّية. وما أنا إلا عاطل جاهل مثلهم، فلم آت حتى الآن شيئاً يذكر في الحياة، ولست أشعر في نفسي بالكفاية لعمل ما. وإذا ما كنت أقل منهم زهواً، وكان رأسي خلواً من كل الترهات التي تحشو رؤوسهم، وكنت لا أبغض الآراء ولا أهابها مثلهم، فإن ذلك راجع إلى ظروف خاصة أحاطت بحياتي. كان أبي صاحب صناعة كبيرة ونائباً من المحافظين، فجائني في السابعة عشرة من عمري بمعلم خجول صموت قريب الشبه بالفتيات، أخذ ف إعدادي

٥) الثورة الفرنسية.

للشهادة الثانوية وهو يدبّر الثورة الاجتماعية في أوروبا. وكان على دماثةٍ خلاّبة. وقد أودع السجن عدة مرات. وهو الآن نائب. وكنت في ذلك الحين أنسخ له نداءاته للعمال. وقد حملني على مطالعة المؤلفات الأشتراكية، وألقى إليّ بأشياء لم تكن كلها محتملة التصديق إلا أنها فتحت عينيّ على ما يدور حوالي. فأثبت لي أن كل ما يبجله المجتمع جدير بالإزدراء، وأن كل ما يحتقره خليق بالإكبار. أي أنه كان يدفعني للثورة. على أني قد أستخلصتُ من تلك التعاليم نقيضها، فأيقنت أن من أقدس الواجبات احترام الكذب وإجلال النفاق، لأنهما أمتن دعابة يقوم بها النظام العام. فظللت في صف المحافظن، غير أن نفسي أمست تعاف كل شيء.

ثم زارني الكرى وما برحتْ نغمات موزار تصل إليّ خافتة متقطعة فتطوف بخيالي في معابد من الرخام تحوط بها الخمائل الزرقاء.

تنبهتُ من نومي وقد مدّ النهار. فأرتديت ثيابي بسرعة غير مألوفة، وأنا أجهل عله هذا الإسراع. ثم وجدتني خارج الدار دون أن أعرف تماماً كيف خرجت. وكان الذي رأيت إذ ذاك حولي مثار دهش جمدت له جميع ملكات الفكر عندي. وبفضل هذا الجمود ظل دهشي ثابتاً هادئاً لا يتزائد، فلا ريب في أني لو بقيت حافظاً لمداركي لما لبث بهتي أن تجاوز كل حد وأستحال إلى ذهول ورعب إذ كان المسرح الواقع تحت بصري مغايراً ك المغايرة لما يجب أن يكون عليه. وكان كل ما يحيط بي جديداً غريباً لم أعهده من قبل. فلا أثر للأشجار والأعشاب التي كنت

أراها كل يوم. وتلم البيوت العالية السنجابية التي كانت بالأمس باذخة على جانبي الشارع قد قامت مكانها بيوت صغيرة من الأجرّ محاطة بالحدائق وممتدة على خط معرّج. فلم أجروّ على التلفت ورائي لأنر إن كان بيتي لا يزال باقياً.

يمّمتُ "باب دوفين" فلم أهتد إليه. وقد تحول الغاب في ذلك المكان إلى قرية. ثم سلت شارعاً ظننت أنه هو الذي كان قبلا طريق "سورين" فرأيت على جانبيه بيوتاً صغيرة من طراز غريب ونمط جديد، يدل صغرها على أن ساكنيها ليسوا من الأغنياء، ومع هذا فإنها كانت مزخرفة بالنقوش والخزف اللامع الجميل. مضيتُ في هذا الطريق الخلوي الذي كان ذا أحناء ومنعطفات يروق منظرها من بعيد. لم تمرّ بي سيارة أو قطار أو عربة أيّا كان نوعها. لكني رأيت ظلالا تجري على الأرض. رفعت رأسي، فإذا طيور وأسماك هائلة تنساب سراعاً في الهواء أسراباً وجماعات كأنما أضحى الجو سماء وبحراً معا. وبالقرب من السين "٦" الذي تحول مجراه، لاقيتُ جماعة من الرجال يرتدون سراويل قصيرة وفي أقدامهم أحذية عالية كأحذية الفرسان. الراجح أنهم عمال في ثياب العمل. لكني وجدتهم أخف حركة وأظرف مشية من عمالنا. ثم وضح لي أن بينهم عدد من النساء. والذي منعني من تمييزهن باديء الأمر، أنهن كنَّ في زي الرجال، وأن سيقانهن كانت طويلة مستقيمة وأوراكهن، على مالاح لي، كانت ضيقة كأوراك الأمريكيات.

---

٦) نهر السين.

إن أولئك القوم لم يكن يبدو عليهم مظهر الجفوة، ومع هذا، فقد أستوحشتُ منهم وخيل إليّ أنهم أغرب عني من آلاف المجهولين الذين صادفتهم حتى اليوم على الأرض.

مضيتُ في طريق مقفر حتى لا أرى وجه إنسان.

ولم ألبث أن رأيتّني في ميدان مستدير، قائمة عليه ساريات عالية تخفق فوقها أعلام حمراء كتب عليها بحروف من ذهب هذه الكلمات: «جمهورية الأتحاد الأوروبي». وقد عُلّقتْ في سوق الساريات إعلانات عدّة موضوعة في أُطر كبيرة مزينة بشارات السلام، يختص بعضها بأعياد الشعب والبعض بالأوامر العامة. وكان بينها جدول لمواعيد المناطيد وخريطة تبيّن مجرى التيارات الهوائية وعليها تاريخ اليوم وهو ٢٨ يونيه سنة ٢٢٠ لأتحاد الشعوب. كان كل ذلك مكتوباً بحروف غريبة وفي عارة لم أفهم كل كلماتها. وفيما كنتُ أحاول كشف معانيها كان ظل الآلات الهوائية التي لا عدّ لها يمر فوق عينيّ. رفعت رأسي ثانية نحو تلك السماء التي تبدلت معالمها وصارت أكثر عمراناً من الأرض، تشقها المناطيد والطائرات ويملأ الدخان عنانها، فرأيت الشمس. وقد خنقتني العبرة عند رؤيتها، إذ كانت هي الوجه الوحيد المألوف الذي وقع عليه بصري منذ هذا الصباح. وتبين لي من ارتفاعها أن الساعة تقرب من العاشرة.

ثم وجدتني فجأة محاطاً بجماعة من الرجال والنساء يشبهون في زيهم وهيئتهم أولئك الذين صادفتهم منذ لحظة. وقد رسخ عندي الشعور بأو أولئك النساء– وإن كانت بينهن البدينة والنحيفة ومن لاعيب فيها– تبدو على العدد الأعظم منهن سمات الخَناث. مرّت موجة الجمع فاقفر الميدان في طرفة عين، شأن الأحياء المتطرفة من المدينة التي لا تعمر إلا ساعة انصراف العمال.

ولما بقيت وحدي عدتُ إلى قراءة ذلك التاريخ: ٢٨ يونية سنة٢٢٠ لأتحاد الشعوب الأوروبية، ما معنى هذا؟ لكني أهتديتُ إلى بيان أذاعته الجمهورية لمناسبة عيد الأرض فعثرت فيه على بعض عبارات استنرت بها في كشف ذلك التاريخ. فقد جاء في ذلك البيان: «أيها الزملاء: تعلمون كيف أشتعلت نيران الثورة الاجتماعية في جميع أنحاء العالم القديم في السنة الأخيرة من القرن العشرين، وكيف قام نظام الاتحاد الأوروبي على أنقاض تلك الثورة التي دامت خمسين سنة، اضطربت في خلالها الأمور وسادت الفوضى....» إ٤ذن فسنة ٢٢٠ لاتحاد الشعوب الأوروبية هي سنة ٢٢٧٠ من التاريخ الميلادي.

هذا أمر محقق. بقى شيء آخر يحتاج إلى جلاء، وهو كيف أني وُجدتُ بغتة في سنة ٢٢٧٠؟

جعلتُ أفكر في ذلك وأنا سائر على غير قصد، فقلت في نفسي:

– لست أعلم أنني أستحلتُ إلى مومياء فقضيت كل ذلك الدهر على هذه الصورة مثل "الكولونيل فوجا". ولست أملك تلك الآلة التي ابتكرها "المستر ولز" للطواف في أنحاء الزمن. وإذا ما كنت قد تخطيت في المنان ثلاثة قرون ونصف قرن على مثال "وليم موريس" فهذا أمر لا أستطيع أن أعلمه إذ أَّن من يحلم يجهل أنه في حلم. ولكني أعتقد يقينا أنني في يقظة.

كانت هذه الخواطر تتردد في بالي وأنا أسير في شارع طويل تحف به من الجانبين سياج، يرى الناظر من خلالها بيوتاً وردية ضاحكة بين الأوراق الخضراء، متنوعة في النسق ولكنها متساوية في الصغر. وكان بصري ينفذ أحياناً إلى الخلاء فألمح دوراً عظيمة من الفولاذ، مستديرة الشكل، يتصاعد منها اللهب والدخان ويرفرف فوقها الرعب والهول. وكانت الطائرات تتهافت عليها مسرعة من كل صوب فيطنّ دوّيها في رأسي موجعاً أليماً. ثم أنتهيت إلى مرج بديع ذي غدران وخمائل منثورة، ترعى فيه الأبقار وادعة. وفيما كانت عيناي ترتويان من نداوة الخضرة. خيل إليّ أنني أرى أشباحاً تجري أمامي على طريق صقيل مستقيم، وقد صكّت ريحها وجهي عندمرورها فأدركت أنها قُطر كهربائية تبدو شفيفة لفرط سرعتها.

عبرتُ هذا الطريق على جسر، وسرت طويلاً في الرياض والغابات حتى حسبتني في قلب الخلاء، فإذا بي أمام بيت جميل واقع على حافة الغابة، رأيت من خلال نوافذه رجلاً ونساء جالسين في بهو فسيح نيّر،

حول مائدة من الرخام محملة بالخزف الأنيق، فظننته مطعما وبدا لي أن أعرّج عليه. لم أكن جائعاً ولكني كنت تعباً، وخلت المقام مستطاباً في هذا البهو الرطيب المزين بالأزهار والثمار. عمدت إلى الدخول، غير أن رجلاً اعترض لي عند الباب، وطلب إليّ أن أطلعه على بطاقتي، فلما بدتْ على الحيرة، قال:

– أرى أيها الزميل أنك لست من هنا، فكيف ساغ لك التجوال من دون بطاقة؟ إن هذا يؤسفني ولكني لا أستطيع إيواءك. فأمض إلى المندوب القائم بتدوين العمال وأطلب منه عملاً، أو إن كنت ذا عاهة فأقصد إلى مندوب الملاجيء.

فجهرت بأني سليم معافي، ثم أنصرفت. وأتفق أن خرج في تلك اللحظة رجل بدين يضم سواكاً بين شفتيه. فقال لي بلهجة تشف عن المروءة.

– لست بحاجة إلى البحث عن مندوب التدوين أيها الزميل، فإني مندوب لمخبز هذا القسم، ويعوزنا زميل، فتعالَ معي تجد عملاً لحينك.

فشكرت لهذا الرفيق البدين عطفه، معتذراً مع ذلك بأنني لست خبازاً، فنظر إليّ في شيء من الدهش وقال إنه يرى من أنني أميل إلى المزاح.

سرت معه حتى وصلنا إلى دار عظيمة من الفولاذ، ذات باب

ضخم يعلوه من الجانبين نُصبان كبير أن من السكب يمثلان الزارع والحاصد، كلاهما ينبعث من وجهه شمم هاديء وتشعر بنيته بقوة وادعة. دخلنا في قاعة يربو أرتفاعها على الأربعين متراً ويسطع في جوها غبار خفيف أبيض. وكانت الآلات تعمل في ضجيج هاديء. فرأيت الأكياس تتقدم من تلقاء ذاتها إلى نصال تشقها، فينساب دقيقها إلى أوعية كبيرة حيث تعجنه أكفّ غليظة من الحديد، ثم يسيل في قوالب تجري به من غير عون إلى أفران تشبه السراديب أتساعاً وطولاً، ولم أرَ أكثر من خمسة أو ستة رجال، كانوا ثابتين في وسط هذه الحركة يراقبون عمل الآلات.

قال لي زميلي البدين:

– هذا مخبز من النوع العتيق لا يكاد يخرج أكثر من ثمانين ألف رغيف في اليوم، وآلاته من طراز قديم العهد تشغل عمالاً كثيرين، ولكن دعنا من هذا الآن واصعد إلى مرسى المناطيد.

لم أجد وقتاً للاستيضاح عن نوع عملي، لأن محدثي لم يأت على آخر عبارته حتى حملني مصعد إلى الإفريز، وإذا بمثل سمكة عظيمة طائرة في الهواء ترسو بالقرب مني وتفرغ وسقها من الأكياس. والذي أستوقف نظري أن هذا المنطاد لم يكن فيه كائن من الأحياء، فقد تحققت أن كل آلاته تدور من تلقاء ذاتها، ثم جاءت مناطيد ومناطيد، على التتابع تنزل حملها ثم تقفل راجعة، فتهبط الأكياس إلى حيث

تشقها النصال. وما كان ذلك إلا بقدر خطفة البرق، فكنت أسمع طنينا بعيداً كطنين الزنبور، ثم ألمح شيئاً لا يلبث أن يتعاظم بسرعة عجيبة، وكانت هذه المناطيد تبدو كأنها مستمكنة من أمرها متوثقة في حركاتها، غير أن جهلي بما تقتضي الحال إذا ما أخطأتْ، مع هذه الدقة، كان يبعث فيّ رعدة الوجل، وهممت غير مرة أن أطلب النزول، ولكن الخجل أقعدني، فلبثت في مكاني حتى انحدرت الشمس في الأفق. ثم بُعث إليّ بالمصعد في الساعة الخامسة، فعمت أن وم عملي قد أنتهى، وأعطيت بطاقة بالمأكل والمسكن. فقال لي الزميل البدين:

– أنت لا بد جائع. فإن شئت ففي وسعك أن تتعشى على المائدة العامة، وإذا آثرت أن تأكل وحدك في غرفتك، فهذا في وسعك أيضاً، أما إذا أحببت أن تأكل عندي مع نفر من الزملاء فقل لي من فورك حتى أوي مصنع الطعام بإرسال نصيبك. تخيّر ما يطيب لك ولا تتكلف شيئاً لا ترتاح إليه. أقول لك هذا لأني أرى عليك دلائل التردد والحيرة، فأنت لا شك آت من بعيد، ويبدو أنك لست شملالا. كان عملك اليوم هيناً، ولكن لا تتوهم أن كسب العيش عندنا سهل على الدوام. فلو أن أشعة z التي تسيّر المناطيد أصابها عطل، كما يقع أحياناً، لكان عملك أكثر عناء. ما صناعتك ومن اين جئت؟

ربكتني هذه الأسئلة، إذ كنت لا أستطيع أن أكاشفه بحقيقتي فأقول له إنني موسر رافه لا عمل لي وإنني آت من القرن العشرين، فقد

يظنني معتوهاً. لكني أجبت في عبارة مبهمة مضطربة بأن لا صناعة لي وأنني جئت من مكان بعيد شاسع.

فأبتسم قائلاً:

– لقد أدركت، أنت لا بد آت من الولايات المتحدة الأفريقية ولا تجرؤ على الجهر بذلك، لست أنت الأوروبي الوحيد الذي فرّ منا ثم حن إلى الديار. إن أولئك المهاجرين يعودون إلينا معظمهم.

فلم أحر جواباً، وخيّل له أن صمتي دليل على أن فراسته لم تخطيء. ثم جدّد دعوتي للعشاء وسألني عن إسمي، فأجبت بأنني أدعى هيبوليت دوفرين. قال، وكأنما أدهشه أن لي أسمين:

– أما أنا فأسمي ميشيل.

وأخذ يتفحص معطفي وقبعتي وحذاءيّ وكل ثيابي التي كانت أنيقة الزيّ مع ما عليها من غبار خفيف، لأني ما أعتدت قط أصطناع ملابسي عند صغار الخياطين.

ثم قال:

– إني أرى الآن من أين جئت يا هيبولييت. أنت لا بدّ قد أستوطنت الأقاليم السوداء وعشت بين زنوج أفريقيا. فليس ثمة اليوم قوم سواهم يحوكون مثل هذا النسيج الرديء ويصنعون الثياب والأحذية على

هذه الصورة المضحكة، وهم وحدهم الذين ما فتئوا يرتدون الأقمصة ميبّسة بالنشا، وأين كان لك أن تتعلم حلق اللحية دون الشارب في غير بلادهم؟ إن تخطيط الوجه وتزيينه على هذا المنوال، الذي هو النمط الأخير من الوشم، لا أثر له إلا عند الزنوج. فتلك الأقاليم الأفريقية السوداء لا تزال عاطنة في منقع الهمجيّة، وحالها اليوم شبيهة بما كانت عليه فرنسا منذ ثلاثة أو أربعة قرون.

قبلتُ دعوة ميشيل للعشاء، فقال:

– إني أقطن بالقرب من هنا، في "سولونيا"، وطائرتي تسير بسرعة لا بأس بها. فنحن نستطيع أن نصل إلى المسكن في برهة وجيزة.

ثم أجلسني في طائرته فأخترقنا الهواء بسرعة خاطفة. وكان منظر الخلاء مغايراً لما عهدت. فقد كانت البيوت منثورة على الطرق، لا يخلو منها مكان. ورأيت قنوات لا عدَّ لها تتشابك خيوطها الفضية بين الحقول. وفيما أنا معجب بما أرى، قال ميشيل:

– لقد أغلَّت الأرض ودرّ خيرها من أن صار الكيميائيون أنفسهم زارعين. فكم من جهود بذلت وعناية صرفت في غضون هذه القرون الثلاثة! ذلك لأن تحقيق النظام الجمَاعي"٧" كان يستلزم زيادة غلة الأرض إلى أربعة أو خمسة أمثال ما كانت عليه أيام فوضى رؤوس الأموال، وأنت

٧) نسبة إلى الجماعة، والجماعية هي التي تقابل (Collectivisme).

الذي عشت بين الزنوج، لا بدَّ تعلم أن متاع الحياة عندهم طفيف تافه، إذا ما تقاسموه بينهم جميعاً على السواء تقاسموا عسراً وليس مالاً. وترجع وفرة الإنتاج عندنا على الأخص إلى تقدم الغلوم، ثم إلى أستئصال طبقة الحضريين. فإن أولئك العاطلين، رجال الحوانيت والدواودين قد تقاسمهم الحقل والمصنع.

فصحت قائلاً:

– كيف ذلك؟ هل قضيتم على المدن؟ وماذا كان مصير باريس؟

– أجاب: قلما يأوى إليها اليوم أحد. فإن معظم تلك البيوت الضخمة البشعة الوخيمة التي كان يسكنها المدنيون في العصر المنصرم قد تداعت ودثر رسمها. وهي لعمري لم تكن خليقة بغير الدمار والزوال. كم كان البناء رديئاظص في القرن العشرين من ذلك العصر الحالك! على أننا قد أستبقينا بضع مبان أقدم من تلك عهداً وأبهى رواءً فجعلنا منها دوراًللتحف والآثار. إن لدينا كثيراً من المتاحف والمكاتب، وهي المنهل الذي نستقي منه العلوم والفنون. واحتفظنا أيضاً ببعض أجزاء مخربة من بلدية باريس. وهي بناية واهية قبيحة، ولكنها شهدت حوادث عظيمة الشأن. أما المدن فلا وجود لها عندنا، إذ لا محاكم لنا ولا تجارة ولا جيوش، على أن درجة العمران تتفاوت من مكان لآخر. فما برحت مراكز الصناعة، مع وفرة أسباب النقل وسرعتها، غاصة بالسكان.

فسألت مندهشاً!

– كيف أستطعتم إلغاء المحاكم؟ هل قضيتم إذن على الإجرام وانتهاك القوانين؟

– قال: الإجرام باقٍ ما بقيت هذه الإنسانية العتيقة العابسة. لكن الجرائم قل عددها لقلة عدد البائسين. وكان ذيوع التليفون اللاسلكي من الأسباب التي جعلت الطرق آمنة في كل حين؟ يضاف إلى هذا أننا جميعاً مسلحون بأجهزة دفاع كهربائية. أما أنتهاك القوانين فذاك كان يرجع إلى حذلقة القضاة أكثر مما هو إلى شرّ في نفوس الناس. ونحن اليوم لا قضاة عندنا ولا مشرعين، وميزان العدل يقيمه جماعة منا على التناوب.

حدثني ميشيل بهذه الأشياء وهو سائر بطائرته، وقد جئت هنا بمعنى حدبثه كاملاً بقدر ما أستطعت. إنما يؤسفني أن ليس في وسعي ذكر نصوص عباراته ولا سيما حركات لهجته، لقصور ذاكرتي ولأنني أخشى أن يغرب عن القاريء معناها. ذلك لأن ميشيل ومعاصريه كانوا يتكلمون بلغة أدهشتني في بدء سماها بما حوته من ألفاظ جديدة وتراكيب غريبة، وعلى الأخص لما فيها من إيجاز وأقتضاب.

هبط ميشيل بطائرته على سطح منزل صغير أنيق ثم قال:

– ها نحن قد وصلنا. فهنا أسكن وسنتعشي مع بعض زملاء يشتغلون مثلي بالإحصاء.

قلت في دهش:

– أتشتغل بالإحصاء؟ لقد كنت أظنك خبازاً.

– قال: إني أشتغل بالخبازة ست ساعات، وهي مدة العمل اليومي التي أرتها لجنة الأتحاد الأوروبي منذ أكثر من قرن، ثم أقضى ما بقى من وقتي في الإحصاء. وهذا هو العلم الذي حلّ مكان التاريخ. كان المؤرخون القدماء يسردون الحوادث الباهرة التي أتاها نفر قليل من الناس. أما رجالنا فيسجّلون كل موارد الإنتاج وأبواب الأستهلاك.

أدخلني ميشيل إلى حمّام فوق السطح، فأغتسلت، ثم نزل بي إلى قاعة الطعام، فوجدتها مضاءة بضوء كهربائي ناصع البياض، وليس على جدرانها من زخرف سوى نقوش قليلة تمثل بعض نباتات مزهرة. وكانت المائدة من الخزف الملون، تلمع فوقها آنية ذات بريق كبريق المعادن، ومن حولها ثلاثة أشخاص ذكر لي ميشيل أسماءهم قائلاً:

– مورين، برسيفال، شيرون.

وكان الثلاثة في أزياء متشابهة، لا تزيد ثياب كل منهم هم قميص من النسيج الخشن وسروال من القطيفة وجوربين أرمدين. وقد أمتاز مورين بلحية طويلة بيضاء. أما برسيفال وشيرون فكان لهما وجهان أملدان، وكانت تلوح عليهما سمات الغلمان، من أجل شعورهما القصيرة، ولا سيما لما في نظراتهما من الصراحة. غير أني ما شككتُ في أنهما

أمرأتان. وكانت برسيفال على شيء من الحسن، وإن لم تكن في مبعة الشباب. أما شيرون، فقد وجدتها فاتنة. قدمني ميشيل إلى رفاقه قائلاً:

– أني آت لكم بالزميل هيبوليت الذي عاش بين الزنوج في الأقاليم السوداء من الولايات المتحدة الإفريقية وهو لم يستطع أن يأكل في الساعة احادية عشرة، ولذا أظنه جائعاً.

وكنت جائعاً. فجيء إليّ بقطع صغيرة مربعة الشكل، أكلت منها فوجدتها مستطابة ولكن دون أن أعرف لها طعماً. وكان على المائدة أنواع عدة من الجبن. وصب إليّ مورين قدحاً من الجعة قائلاً:

– لك أن تشرب منها بقدر ما تشاء إذ ليس فيها أثر للكحول.

– قلت: أرى أنكم قد فطنتم لمخاطر الكحول.

– قال: لقد نجح أسلافنا في القضاء عليه قبل نهاية العصر المنصرم. ولولا ذلك لما توطدت أركان هذا النظام الجديد. وهل كان في طوق العمال أن يتخلصوا من الرق لو أنهم ظلوا يدمنون الخمور؟

ثم بصرتُ بقطع من الطعام غريبة الشكل، فتناولت منها واحدة وقلتُ:

– ألم تقطعوا مرحلة جديدة في سبيل تحسين الغذاء؟

قالت برسيفال:

– أنت لا بد ترمي أيها الزميل إلى التغذية الكيمائية. فهذه لم تخطُ بعيداً إلى الأمام. وعبثاً سعياً في هذا السبيل. فقد ندبنا الكيميائيين في الطهاية فأعدّوا لنا أقراصاً قالوا إنها تغني عن الطعام، ولكنها لم تجدِ نفعاً. فنحن نكاد نكون في طعامنا على خشونة أهل العصر الماضي، وما برحنا نستطيب مذاق الطعوم مثلهم، ولا نمتاز عنهم بشيء سوى أننا نستطيع تحديد القدر من الغذاء الذي يستحيل في الجسم إلى حرارة والقدر منه الذي يستنفد في تجديد الخلايا وتكاثرها.

– فقال ميشيل: إن علماءنا مجدّون في البحث عن قوام يتفق مع ما نعلم من حاجات الجسم.

وتدخلت شيرون في الحديث قائلة:

– هذه أوهام صبيانية. وكل جهودنا لا محال ضائعة ما دمنا لم نستأصل المعي الغليظ، ذلك العضو الأشلّ الخبيث الذي هو بؤرة العفونات المكروبية... ولا بد أن هذا صائر.

– فسألتُ: بأبسط وسيلة وهي البتر. على أن هذه العملية إذا أجريت لعدد كاف من الأفراد في أجيال متتالية، لا يلبث أثرها أن يتوطد بالوراثة فيضحي صفة مكتسبة للنوع الإنساني بأجمعه.

لاقيتُ من أولئك القوم رفقاً في المعاملة ولطفاً في المحادثة، لكني مع هذا وجدتني بعيداً عن الإيناس بطباعهم والسكون إلى آرائهم، وأدرت أنهم لا يأبهون بتاتاً لشأني، وأن مذاهبي في الأمولا لم تلقَ لديهم إلا فتوراً. وكنت كلما بالغت في التأدب، ألفيتُ عطفهم يحيد عنّي. فحينما وجّهتُ إلى شيرون بعض الأطراء–وكنت مع ذلك صادقاً مستتراً– رأيتها تغض الطرف عني معرضة.

فأقبلت، بعد الطعام، على مورين، وقد توسمت فيه الكياسة والدعة، وقلت له في لهجة، تأثرت لها أنا نفسي:

– سيدي مورين، إني لا أدرك شيئاً مما أراه حولي. وأعاني من جرّاء ذلك آلاما قاسية. ذلك لأني آت من بعيد، كما قلت. فهل لك أن توضح لي كيف قام الأتحاد الأوروبي؟ وأن تقرب إلى ذهني نظام المجتمع الحالي؟

فصاح الشيخ: أنت تسألن تاريخ ثلاثة قرون، وهذا يستلزم أسابيع وشهوراً. ثم أن هناك أشياء لا أستطيع إيقافك عليها لأني أنا نفسي أجهلها.

فألححت في الرجاء وطلبت إليه أن يلقي عليّ ملخصاً وجيزاً مثل ما يلقي على صبية المدارس.

فتمكن مورين في مجلسه وقال:

– لكي تعرف كيف قام النظام الحالي يجب أن نرجع بعيداً إلى الوراء في الماضي.

«كان العمل الأعظم شأناً في القرن العشرين من العصر المنصرم هو خمود الحروب».

«ولم تكن محكمة لاهاي، التي نشات في ظلمات الوحشة، ذات أثر في صون السلام. إنما تكوَّن في ذلك العصر مجلس آخر أنجع منها فعلاً. فقد شرع نواب العمال في كل بلدان أوروبا يتصلون بعضهم ببعض، ثم جعلوا يجتمعون للبحث في المسائل الدولية. ولما كان أولئك النواب يعبّرون عن الرغبات السلمية لعدد من الناخبين آخذ في الإزدياد، فقد كان لما يبتّون فيه من الأمور شأن لدى الحكومات. وكانت هذه الحكومات، بما فيها الأكثر إطلاقاً، قد أمست تعتد بشعور الشعوب منذ ذلك العهد. والذي يدهشنا اليوم أن أحداً من أهل ذلك العصر لم يفطن إلى أن تلك الاجتماعات التي كان يأتي إليها النواب من كل صوب، لم تكن سوى الخطوات الأولى فيي سبيل برلمان دولي».

«على أن جزب الحرب كان لا يزال قوياً في كل الممالك بل وفي الجمهورية الفرنسية. صحيح أن حروب الأسرات المالكة والحروب السياسية التي كانت تقرر حول المناضد الخضراء للمحافظة على ما كانوا يسمونه الموازنة الأوروبية، كانت قد أنقضى زمانها وزال خطرها أبداً،

ولكن حالة أوروبا الصناعية كانت سيئة، وكان يخشى أن يكون التنافس من أجل المنافع التجارية سبباً في اضطرام حرب ضروس».

«وكانت نفايات العمال في ذلك العهد غير مستكملة النظام وغير شاعرة بقوتها، فلم يكن في مقدورها أن تمنع وقوع الحروب. غير أنها عملت على الإقلاع من تواترها والتقصير من أمدها».

ويرجع السبب في آخر ما وقع من الحروب إلى سورة الجنون التي تملكت العالم القديم في ذلك الزمان، والتي كانوا يطلقون عليها إسم سياسة الاستعمار. فقد تنازع الإنجليز والألمان والفرنسيون والروس والأمريكان، في عنف وحدى، ما كانوا يسمّونه بمناطق النفوذ في آسيا وأفريقيا. فوطدوا مع أهل تلك المناطق التعسة علائق اقتصادية قائمة على السلب والقتل، وخرّبوا في تلك البلاد ما كان في الوصع تخريبه. ثم حدث بعد ذلك ما كان محتوماً وقوعه، فقد أفلتت البلاد الموسرة من أيديهم ولم يبق لهم إلا قفراء مبهظة. وعدا هذا فقد ظهر حين ذلك في آسيا شعب صغير باسل، أخذ العلم عن أوروبا ثم عرف كيف يجعل لنفسه حرمة ترعاها الأمم الأوروبية. ولا ريب في أن اليابان أسدت بذلك خدمات عظيمة إلى الإنسانية في تلك الأزمنة الوحشية.

«وقد انتهت الحروب بأنتهاء طور الاستعمار الفظيع، غير أن الحكومات ظلّت مستعصمة بجيوشها.

«الآن وقد علمت هذا، بقى أن أبسط لك، كما أردت، منشأ المجتمع الحالي. إنه ناجم عن المجتمع الذي تقدمه، لأن النظم الاجتماعية، شأنها شأن الكائنات الحية، تتولد بعضها من بعض.

«وقد كان النظام الجمَاعي نتيجة طبيعية لنظام رأس المال الذي نشأ في أوائل القرن التاسع عشر من العصر المنصرم، وكان حدثاً عظيماً في تاريخ الصناعة. كان الإنتاج الصناعي، قبل ذلك العهد ضئيلاً، إذ كان مقصوراً على صنّاع صغيرين متفرقين، كلٌّ يعمل على حدة. فجاءت تلك القوة الجديدة العجيبة، قوة رأس المال، فقضت على تلك الصناعات الصغيرة وأبدلت منها صناعات واسعة النطاق وافرة الإنتاج. فكان هذا تقدماً عظيماً في تاريخ الإجتماع.

– فسألت: ما الذي كان تقدماً عظيماً في تاريخ الاجتماع؟

– قال: النظام الرأسمالي، فقد عاد على الإنسانية بموارد للثروة لا حصر لها. غير أنه كان باعثاً على ازدياد العمال وتجمعهم، فخلق بذلك طبقة العمال، التي أضحت حكومة ذات صولة في باطن الحكومة. فكأنه قد مهّد لهم سبيل التحرر من الرقّ، وهيأ لهم وسائل الوثوب إلى الحكم.

«على أن هذا النظام، الذي صار إلى هذه النتائج الباهرة، كان في عصره ممقوتاً من العمال. فقد كابدوا من جرّائه صنوف الذل والجور، وتردَّي منهم في إبَّابه لا حصر له من الضحايا. وهل من خير أحرزه المجتمع دون أن يكلفه دموعاً ودماء؟

«وعدا ذلك فإن هذا النظام الذي ملأ الأرض ثراء، كاد يودي بها إلى الخراب، إذ أنه أوفر الإنتاج إلى حد كبير، ثم بات عاجزاً عن تنظيمه، فجعل يتخبط في صعاف لا مخرج منها.

«وأنت لا تجهل تماماً أيها الزميل تلك الاضطرابات الاقتصادية التي ملأت القرن العشرين. فقد كان خلل الإنتاج وحمى المنافسة باعثين على تراكم النكبات في القرن الأخير من عهد رأس المال. وحاولوا أرباب الأموال والصناعات حسم الداء، فتألبوا وألفوا جماعات ضخمة غايتها تنظيم الإنتاج والقضاء على التنافس. ولكنهم فشلوا وتحطم عملهم في قارعة هائلة، لأنه لم يكن قائماً على أسس صائبة.

«واشتد الصراع بين الطبقات في غضون تلك الفوضى، فحمى وطيسه وأضحى عراكاً مفزعاً غشوماً. وكانت طبقة العمال قد ناءت بأعباء انتصاراتها وهزائمها وحطمتها أحجار البناء الذي قلبته فوق رأسها، ومزقها العراك المخيف الذي دبَّ في أحشائها، فطرّحت خير رؤوسها، وتنصلت من أوفى أصدقائها، وظلت تقاتل قتالاً مشعثاً في غياهب الظلمات. على أنها ما فتئت تحرز الفوز تلو الفوز، فظفرت بأرتفاع الأجور ونقص ساعات العمل، والحرية المتزائدة في تنظيم الجهود ونشر الدعوة، ثم بالإستيلاء على السلطات العامة. كان يُظن أن طبقة العمال قد قضى عليها من جرّاء انقسامها وغلطاتها، ولكن الواقع أن كل الأحزاب الكبيرة منقسمة، وأنها كلها تركب متن الشطط أحيانا. وقد كانت الأمور مواتية للعمال، فلم تأت نهاية ذلك القرن حتى بلغوا من

الرغد شأواً يتيح لهم الوصول إلى أفضل منه. ولا يغرب عنك أيها الزميل أن الحزل الذي يقوم بثورة لا يفوز بمأربه إلا إذا كان قوياً من قبل. وكانت الحال في أواخر القرن العشرين من العصر المنصرم جد ملائمة لذيوع الجمَاعية، إذ كانت الجيوش قد تناقصت في غضون ذلك القرن، ثم انحلّت، بعد أن ناضلت عنها السلطات الحاكمة وطبقة المّلاك نضال اليأس. وكان انحلالها بقرار من المجالس النيابية تحت ضغط عنيف من جانب الشعوب. ولم يحتفظ رؤساء الحكومات بتلك الجيوش إلى ذلك العهد تأهباً للحرب، إذا لم يكن يخشى أو يتوقع حرباً منذ زمن بعيد. إنما كان الغرض منها كبح جماح العمال. وقد نزلت الحكومات في النهاية عند إرادة الشعوب. واستبدلت بالجيوش النظامية جنوداً من الرديف، كانوا مشبعين بالآراء الاشتراكية. ولك تكن الحكومات مخطئة في التشبث بأهداب العسكرية. فإن الحكومات الملكية وقد باتت عزلاء لا تحميها المدافع والبنادق، لم تلبث أن انثلت عروشها الواحد تلو الآخر، وانقلبت إلى حكومات جمهورية. ولم يبق أثر للملكية إلا في انجلترا، حيث كانت الحكومة قد سنّت من قبل نظاماً، عدّه العمال مطاقاً.

«وكانت الأجهزة اللاسلكية قد عمّ انتشارها إذ ذاك، وأضحى استعمالها سهلاً ميسوراً لأفقر الناس. فكانت الخطب الاشتراكية التي تلقي في إحدى المدن الأوروبية، يرنّ صداها في جميع أنحاء أوروبا، فيسمعها العمال وهم في مراقدهم. كذلك الطائرات كانت بلغت شأواً

بعيداً من الإتقان، فدخلت إلى ميدان الحياة العملية "[٨]"، ونشأ عن ذلك أن أصبحت الحدود بين الدول عديمة الجدوى. وتنبهت الأمم إلى هذا المصير فتملكها الروع، ومرت فترة من أحرج فترات التاريخ، إذ انتعشت الغريزة القومية من جديد في نفوس الشعب واشتعلت جذوة الوطنية في الصدور، بعد أن كانت البلدان على وشك الاندماج في إنسانية واسعة النطاق. على أن هذه الفورة لم تتعدّ شكل الجلبة والشغب، إذ لم يكن هناك ملوك ولا جيوش ولا نبلاء. فحدثت ضجة في الجمهوريات الفرنسية والألمانية والهنغارية والرومانية والإيطالية بل وفي جمهوريتي سويسرا وبلجيكا. وعُقدت في كل بلد من هذه البلدان اجتماعات عظيمة تقرر فيها بالإجماع الدفاع عن أرض الوطن والصناعات الوطنية ضد الغارات الأجنبية، وسنّت السلطات التشريعية قوانين صارمة ضد وسائل التهريب بالطائرات، وأخرى لتحديد استعمال الإذاعة اللاسلكية. شورعت الدول في تنظيم جنود الرديف على مثال الجيوش الدائمة التي كانت موجودة من قبل. وظهرت الملابس العسكرية من جديد في عواصم البلاد بألوانها الزاهية وأزرارها البراقة وأحذيتها الطويلة. وصفّق الجمع في باريس عند رؤية القلانس الوبرية على روؤس الضباط. وتهافت أصحاب الحوانيت وفريق من العمال على الشرائط المثلثة الألون. وأقبلت المراكز الصناعية على صنع المدافع والدروع. وبات الناس يتوقعو حرباً هائلة. دامت سورة هذا الجنون المخيف ثلاث سنوات من

٨) كتبت هذه القصة في سنة ١٩٠٣. وكان اللاسلكي في بدء تجاربه الأولى. ولم يكن أحد يتوقع في ذلك العهد هذا التقدم السريع للطيران.

دون اصطدام. ثم خمدت النار شيئاً فشيئاً وعاد الجند إلى مظهرهم الأول وشعورهم القديم. وكانت ساعة التئام الشعوب قد حانت، بعد أن ظن الناس أنها بَعدتْ بعداً شاسعاً. فأخذ الميل إلى السلام يتزاد من يوم إلى يوم، وجعلت الجماعية تستحوذ رويداً رويداً على المجتمع، حتى تنحّتْ لها الرأسمالية المهزومة عن الحكم.

– فصحتُ قائلاً: إنه لإنقلاب عظيم، وليس في التاريخ نظير لمثل هذه الثورة.

وعاد مورين إلى الحديث قائلاً:

– فأنت ترى أيها الزميل أن الجمَاعية لم تأت إلا في حينها. ولم يكن في وسع الجماعيين إلغاء رأس المال والملكية الفردية، وهما الشكلات البارزان للثروة، لولا أنهما كانا قد تقوضا فعلا من قبل، بفضل جهود العمال، وعلى الأخص بفضل التقدم الحديث للعلم والصناعة.

«وكان يُظن أن أول دولة جَماعية ستكون ألمانيا، لأنها أول من نشر الدعاية لهذا النظام، ولأن الناس كانوا يقولون في كل مكان «غن الاشتراكية شيء ألماني». غير أن فرنسا، التي كانت أقل منها عدة، قد تقدمتها في هذا السبيل. فبدأت الثورة الاجتماعية في ليون وليل ومرسيليا، بين دوىّ «النشيد الدولي». وقاومت باريس خمسة عشر يوماً، ثم رفعت علم الثورة في النهاية. وفي اليوم التالي أُعلنت الجماعية في برلين. وكانت نتيجة انتصار الجماعية أن التأمت الشعوب.

«فأجتمع مندبو جميع الجمهوريات الأوروبية في بروكسيل وأعلنوا تكوين الولايات المتحدة الأوروبية.

«ورفضت انجلترا الانضمام إلى هذا الأتحاد. ولكنها أنعلنت أنها ستكون حليفة له. وبقيت في نظامها الاشتراكيمحتفظة بمِلِكها ولورداتها وتقاليدها، بل بتلك الشعور المستعارة التي يضعها القضاة فوق رؤوسهم.

«وكانت الجماعية قد انتشرت في أستراليا والصين واليابان، في حين أن أفريقيا السوداء كانت قد بدأت تدخل في طور رأس المال، فتجمعت شعوبها في أتحاد قليل التجانس. وكانت أمريكا قد أخذت تنبذ العسكرية، التي كانت تبغى من ورائها أمتلاك أسواق العالم. وقصارى القول إن حالة العالم كانت إذ ذلك ملائمة لتقدم الأتحاد الأوروبي ونجاحه. غير أن هذا الأتحاد الذي استقبلته أوروبا بالفرح والحماس، ظل نصف قرن يتخبط في الظلام، حتى سادت الفوضى واستحكم الضنك، وكادت الحكومات المحلية، إما لقلة حنكتها وإما لسوء نيتها، تجرّ البلاد إلى الدمار.

«مضت خمسون سنة على تكوين الأتحاد، والحال تصير إلى التفاقم والاضطراب، حتى خابت الآمال خيبة قاسية، وتسرب اليأس إلى أقوى النفوس عزيمة وأكثرها تفاؤلاً. وبدت دلائل التصدع في كل مكان، تنبىء بقرب انفصام الاتحاد. وفي ذلك الحين برزت لجنة مكونة من أربعة عشر عاملاً، وقبضت على أزمة الأمور بيد من حديد. فقضت على

الفوضى ووطدت دعائم الأتحاد الأوروبي، بأن وضعت له النظم التي يسير عليها إلى الآن. وقد قال البعض أن هؤلاء العمال الأربعة عشر أظهروا من الحصافة والعزم ما ليس في طاقة البشر. وزعم آخرون أنهم كانوا من أواسط الناس، غير أنهم قد أفزعتهم الحاجة وسحقتهم المحنة فهبّوا مسوقين، كمن يندفع إلى أمر بالرغم عنه، وتولوا تنظيم القوات الاجتماعية الجديدة. ومهما يكن شأنهم، فمن المحقق أنهم لم يسيروا ضد مجرى الأمور. وجميع النظم التي وضعوها، أو التي وُضعت في أيامهم، لا تزال كلها على وجه التقريب باقية إلى الآن. من أجل هذا كان حقاً أن يبدأ تاريخ هذا العصر الجديد من أيامهم.

وشرح لي مورين بإيجاز مباديء المجتمع الحديث، ثم قال:

– وكل هذه المباديء قائمة على إلغاء الملكية الفردية إلغاءً تاماً.

قلتُ: وهل تطيقون هذا النظام؟

– قال: ولماذا تريد يا هيبوليت أن لا يكون مطاقا؟

«لقد كانت الحكومات الأوروبية فيما مضى من الزمان تجبي الضرائب وتتصرف في الأموال التي تجمعها كأنها ملك خاص لها. أما اليوم فقد يقال بحق إن الحكومة تملك كل شيء وإنها لا تملك شيئاً. بل الأصح أن يقال إننا نحن الذين نملك كل شيء وإنها لا تملك شيئاً. بل

الأصح أن يقال إننا نحن الذين نملك كل شيء، إذ أن الحكومة ليست منفصلة عنا، وما هي إلا عنوان للمجموع».

–فسألت: ألا تملكون شيئاً مطلقاً؟ ألا تملكون أثاث بيوتكم؟ ألا تملكون الآنية التي تأكلون فيها؟ ألا تملكون حتى ملابسكم؟

فأبتسم مورين لهذا السؤال وقال:

– ما كنت أظنك ساذجاً إلى هذا الحد يا هيبولت.

أنت تتوهم أننا لا نملك أثاث بيوتنا؟ كيف تتصور إذن أذواقنا وطبائعنا ونظام معيشتنا؟ هل تحسبنا رهباناً– كما كانوا يقولون قديماً– مجردين من كل الخصال الفردية، لا نستطيع أن نطبع ما حولنا بطابع شخصي؟ أنت في ضلال يا صديقي، انت في ضلال. فنحن نملك جميع الأشياء التي جُعلت لحاجتنا ومتعتنا، ونتعلق بها أكثر مما كان أهل القرن العشرين من العصر الغابر يتعلقون بحليّهم، لأننا أشد منهم ميلاً إلى الأشكال وأقوى شعوراً بجمالها. وأنت لا تجد بيننا من لا يقتني تحفاً فنية يغرم بها ويغار عليها. فهذه شيرون تملك صوراً هي أعظم أسباب مسرتها، ولا تحب أن ينازعها أحد حق أمتلاكها. وأنا أحتفظ في هذه الخزانة بلوحات، من عمل أمهر الفنانين في العصر الماضي، ولا أرتضي عنها بديلاً ذهباً أو فضة.

«من أين تطلع علينا يا هيبوليت؟ فقد قيل لك أن دعامة المجتمع الحالي هي إلغاء الملكية الفردية، وأنت تتوهم أن هذا الإلغاء يشمل الأثاث والمتاع. ألا فأعلم أيها الرجل الساذج أن الملكية الفردية التي قضينا عليها إن هي إلا إمتلا وسائل الإنتاج، كالأراضي والمصانع والمناجم والترع والطرق والسكك الحديدية إلخ... وليست هي تملّك مصباح أو مقعد. إن الذي أردنا اجتنابه هو إمكان إحادة ثمرة العمل إلى مصلحة فرد أو فريق من الأفراد، وليس هو تملك الأشياء الحبيبة إلينا التي تحيط بنا، والتي نعدّ إمتلاكها امراً طبيعياً لا ضير منه.

وشرح لي مورين نظام توزيع الأعمال العقلية واليدوية على جميع أعضاء المجتمع تبعاً لكفايتهم. ثم قال:

– ومن مزايا المجتمع الجماعي أن جميع الناس في عصرنا يعملون، على حين أن العاطلين كانوا كثيرين في العصر الغابر. وكان العمل في ذلك العصر مشتتاً غير متناسق، لا يخضع لنظام ولا يسير على أسلوب. وكانت هناك أعمال كثيرة لا فائدة منها، غذ كانت المدن غاصة بجموع حاشدة من الموظفين والقضاة والتجار والجنود، وكل هؤلاء كانوا يعملون ولا ينتجون. وكانت أقساط الناس من ثمار العمل غير عادلة، ولم يكن نظام الضرائب إلا ليزيد البلاء شراً. فكان الألم شاملاً. أما اليوم فقد تناسق الإنتاج والاستهلاك تناسقاً دقيقاً. ويمتاز عصرنا أخيراً عن العصر القديم بأننا ننعم بحسنات الآلات والعدد الحديثة، وأنت تعلم أن الآلات في عصر رأس المال كانت في أغلب الأحيان نكبة على العمال.

ثم سألت كيف أتيح إنشاء مجتمع مؤلف كله من العمال.

فأجاب مورين بأن قدرة الإنسان على العمل خصلة عامة، وأنها من الخصال الجوهرية التي يمتاز بها النوع الإنساني، ثم قال:

– كان الأشراف والأغنياء في الأزمنة الهامجة يميلون جلّهم إلى الأعمال التي يغلب فيها نسيب الجسم على نصيب العقل، كالصيد والحرب، وركوب الخيل وقيادة السيارات، والمبارزة بالسيف أو بغيره. وهي أعمال جدباء أو مؤذية. وكانوا يزهدون في الأعمال النافعة القويمة، لأن ترهاتهم وأوهامهم الموروثة كانت تصدّهم عنها، ولأن بيئة العمال كانت في ذلك العهد مزرية شنيعة. وقد عانت الجماعية صعاباً جمة في سبيل الأعلام من قدر العمل واجتذاب الناس إليه، حتى أضحينا اليوم نرى الفخر كل الفخر في حمل الفأس أو المطرقة، كما كان أهل العصور المضلمة يرون المجد والشرف في حمل السيف أو البندقة. فأنت ترى أن في الإنسانية غريزة دفينة لا تتغير على مرّ العصور، وهي تهافت الناس على ما يحسبونه مفخرة ونبلا.

وأنتقل الحديث إلى النقود. فقال أن لا أثر لها عندهم، بل ولا أثر لذكرى تداولها.

فسألت:

– وكيف تجري المعاملات التجارية من دون نقد؟

– قال: نحن نتبادل الحاصلات بواسطة صكوك شبيهة بالصك الذي تسلمته اليوم أيها الزميل. وهي المقابل لساعات العمل التي اشتغلها العامل. وتقدر قيمة الحاصلات بالزمن الذي يقتضيه صنعها. فالخبز واللحم والجعة والملابس تساوي «س» من ساعات العمل أو «ص» من الأيام. غير أن الحكومة تستقطع بضع دقائق من كل صك، تخصّ بها الأعمال العامة والملاجيء والمشافي والمصحات ونحو ذلك، وتستنفد قسطاً منها في إدخار الأطعمة والمصنوعات لوقت الحاجة.

فتدخل ميشيل في الحديث قائلاً:

– وهذه الدقائق تتزايد باطراد، والحكومة لا تفرغ من الأعمال العظيمة التي يقع عبؤها على عاتقنا. وقد تكدست الأذخار حتى باتت المخازن العامة مكتظة بمختلف أنواع السلع. وتلك هي دقائق العمل التي تُستقطع منا، لتبقى راكدة لا نفع منها. إننا مازلنا نعاني ضروباً من الإفراط والشطط.

قال مورين: لا ريب أنه أفراط، وأن في الوسع تلافي هذه الحال والانتفاع بتلك الخيرات الطايلة التي تجمعت في كل البلدان الأوروبية.

وأردتُ أن أعرن إن كان أولئك القوم لا يملكون مقياساً آخر لتقدير العمل غير عدد الساعات اللازمة لإنجازه. وهل عمله البنّاء أو الحجار تعادل في عرفهم عمِلة الكيميائي أو الطبيب. فسألت عن ذلك في سذاجة.

فقالت برسيفال:

– وهذا سؤال ينم عن غباوة.

ولكن مورين شاء أن يوضح لي ما أردت الوقوف عليه، فقال:

– إن جميع أنواع الدرس والبحث والأعمال التي ترمي إلى جعل الحياة أسبغ عيشاً وأكثر بهاءً، تلاقي كل عون وتشجيع في مصانعنا ومعاملنا. والحكومة الجماعية تعطف على الدراسات العليا، وتعمل على اجتذاب الناس إليها. فالدراسة إنتاج، لأن الإنتاج لا يكون بغير دراسة. من أجل هذا كانت الدراسة كالعمل، تخول المشتغل بها حق المعيشة. إن الذين ينقطعون لأبحاث شاقة مديدة إنما يعملون لبلوغ حياة هادئة مكرمة. على أن هذا لا يبرر تفاوتا في الأجر، فإن الكيميائي الذي يكشف في بضع ساعات عن خواص هامة لجسم من الأجسام، فتفيد الإنسانية من وراء الوقوف عليها نفعاً عظيماً، لم يصل إلى ما وصل إليه إلا بعد أن أفنى شهوراً في عزل هذا الجسم، وأعواماً طويلة في البحث والدرس. وقد عاش كل هذه المدة على كاهل الحكومة. كذلك الجراح الذي ينقذ في بضع دقائق حياة إنسان من الألم أو من الموت، إنما وصل إلى علمه ومهارته بعد أن قضى عشرات السنين في الدراسة والتمرين، كان يتسلم في غضونها صكوكاً للمأكل والملبس والمسكن. فكل هؤلاء العلماء الذين يأتون في شهر أو في ساعة أو في بضع دقائق

أعمالاً هامة عظيمة، هي نتيجة جهود الحياة بأجمعها، إنما يؤدون للجماعة في صفقة واحدة، ما بُذل لهم في سنين عدة.

ثم قالت برسيفال:

– هذا إلى أن أولئك العقليين من جراحين وطبيبات وكيميائيين، يعرفون كيف يستغلّون أعمالهم ومكتشفاتهم، للاستزادة من أسباب النعيم والمتعة، زيادة جاوزت كل حدّ. فقد حملوا الهيئات الختلفة على أن تخصهم بميزات متعددة، كالطائرات الفخمة والقصور والحدائق الواسعة. وهم أناس ذوو نهم في ملاذ الحياة، يعيشون عيشة أبذخ وأرغد من حياة طبقة الموسرين في العصر السالف. والغريب أن بينهم كثيرين من الأغبياء والبلهاء، لا يليقون إلا للعمل في الطواحين مثل هيبوليت.

وتدخل ميشيل في الحديث، فقال أن برسيفال على صواب، وجعل يشكو مرّ الشكوى من مراعاة الحكومة لأولئك الكيميائيين وتسمينهم على حساب العمال الآخرين.

وسألتُ إن كان الأتجار بالصكوك لا يؤدي إلى صعود أو هبوط لقيمتها.

– فقال مورين: أن الأتجار بالصكوك محظور. بيد أننا لا نستطيع أن نكف الناس عنه بتاتاً، لأننا، كما في الزمان الغابر، لا يزال فينا البخلاء

والمبذرون، والكسالى والمجدّون، والأغنياء والفقراء، والمجدودون والتعساء، والراضون والناقمون. ولكن كل الناس يعيشون، وهذا ليس بقليل.

فلبثتُ مطرقاً برهة ثم قلت:

– يلوح لي يا سيدي مورين أنكم قد حققتم المساواة والأخاء على قدر المستطاع. ولكني أخشى أن تكونوا في سبيل هذا، وقد جرّتم على الحرية، وهي في نظري أعزّ ما يملك الإنسان في الحياة.

فهزّ مورين كتفيه قائلاً:

– أننا لم نسعَ قط إلى تحقيق المساواة، ولسنا نعرف ما هي، إنما نحن قد كفلنا الحياة لجميع الناس، ورفعنا من قدر العمل. فإذا ظن البنّاء بعد ذلك أنه أرفع منزلة من الشاعر، أو توهم الشاعر عكس ذلك، فهذا شأنهما. وليس بضائرنا أن يحسب كل عامل مهنته أشرف المهن وأنفعها، بل قد يكون ذلك خيراً للجماعة.

«ويبدو لي من حديثك أيها الزميل هيبوليت إنك قد قرأت الكثير من كتب القرن التاسع عشر، التي يندر أن نفتحها الآن. فأنت تتكلم بلغة غريبة شبيهة بلغة تلك الأيام. وتتردد في عباراتك كلمات الحرية والمساواة والأخاء، التي لاكتها الألسن إذ ذاك. ونحن نعجب اليوم من أن زعماء الشعب في ذلك العهد، قد جعلوا تلك الكلمات الجوفاء شعاراً لهم. فالحرية لا يمكن أن توجد في المجتمع لأنها ليست في

الطبيعة، إذ ليس يوجد حيوان حر. كان يقال قريماً عن الرجل أنه حر متى ل يكن خاضعاً لغير القوانين. هذه آراء صبيانية. وقد أفرطوا في استعمال كلمة الحرية في الحقبة الأخيرة من فوضى رأس المال، حتى أستحال مدلولها أستحالة فكرة المساواة بأكثر سداداً، وهي تقضي إلى الغم والخيبة، لأنها تفترض مثالا أعلى، ولكنه أخدع من السراب. ونحن اليوم لا مأبه لهذه الترهات ولا يعنينا سوى أن يؤدي الفرد كل ما يستطيع أن يؤدي ويحصل على كل ما يحتاج إليه. أما الأخاء، فنحن نعرف جيداً ما كان يصنع الأخوة بأخواتهم في تلك العصور. لم يطبع الناس على الشر، وهم لم يطبعوا على الخير، ولكنهم طبعوا على هذا وذاك معاً. وهم يعيشون في سلام متى لم يكن لديهم أسباب للنزاع. ونظامنا الحاضر يمكن وصفه بكلمة واحدة وهي «التناسق». إذ لا ريب في أن جميع القوى الإنسانية تضرب اليوم على نغمة واحدة.

ثم قلت:

– لقد كان أهل ذلك العصر، الذي تسمونه بالعصر المنصرم، يؤثرون الأمتلاك على التمتع. ويخيل إليّ أنكم على النقيض، تؤثرون التمتع على الأمتلاك. ولكن ألا يشقّ عليكم ألاّ يكون لكم مِلك تتركونه لأولادكم؟

فقال مورين محتداً:

– كم من الناس كانوا يتركون ميراثا في عصر رأس المال واحد في الألف؟ أو واحد في عشرة آلاف؟ ولا تنس أن أجيالاً عدة لم تعرف حرية التوصية بأموالها. على أن انتقال الثروة بطريق الوراثة كان معقولاً حينما كانت الأسرة موجودة، أما الآن...

فصحت قائلا:

– ماذا تقول؟ ألا تعيشون في أسرة؟

فسخرت الزميلة شيرون من دهشي وقالت؟

– ليس غريباً أن تندهش، فإننا نعلم أن الزواج لا يزال باقياً عند الزنوج. أما نحن الأوروبيات فإننا لا نرتبط بعهد، أو إذا عاهدنا فإن القانون يجهل ذلك. وهل يخلق بالإنسان أن تكون حياته أجمعها معلقة بكلمة؟ بيد أننا لا يزال فينا أثر من عادات العصر الخالي، فإن المرأة إذا استسلمت لرجل، أقسمت بقرني القمر أنها ستكون له وفيّة. والواقع أن لا عهود بيننا تربط الرجل أو الرأة، ولا يندر مع هذا أن تدوم الصلة بينهما أمد الحياة، إنما هما لا يريدان أن يكون وفاؤهما وفاء يحرسه قسم أو عقد، ولا توطدّه الألفة الجسيمة والخليقة. لقد تسلط الرجل على المرأة في الأزمنة السالفة وألقى في روعها أنها مِلك له. ولسنا اليوم على هذا القدر من السذاجة. فنحن لا نعتقد أن الإنسان متاع يُملك، أو أن لأحد سلطان عليه غير نفسه. المرأة في نظامنا حرّة طليقة، تهب نفسها متى تشاء ولمن تشاء، وهي لا تستخزي من الأذعان للشهوة،

لأننا لا نعرف الرياء. كان الناس منذ أربعماْ سنة ليس غير، لا يدركون شيئاً في علم وظائف الأعضاء. وقد أفضى هذا الجهل إلى كثير من الأضاليل والخيبات القاسية. مهما يقلْ الزنوج يا هيبوليت، فالأولى بسنن الإجماع أن تدين لقوانين الطبيعة، وليس أن تخضع هذه لتلك، كما كانت الحال في العصور الغابرة.

وانضمت برسيفال إلى الحديث فحبذت آراء زميلتها ثم قالت:

– وهام مثالا، لترى كيف سوّيت مسألة الجنسين في نظامنا. إن العامل الذي يطلب عملاً لا يُسأل أهو رجل أو إمرأة، لأن هذا ليس من شأن الجماعة.

فسألت:

– وما مصير الأولاد إذن، وهم لا أسرة لهم؟

أيتركون للأقدار والمصادفات؟

قالت:

– من أين جاءتك أمثال هذه الخواطر؟ إن الحب الأمّي غريزة قوية عند المرأة. ولم يخُل العصر المنصرم، على شناعته، من أمهات كن يخضن غمرات الفاقة، ويحتملن مذلة العار، في سبيل تربية أولاد ولدنهم سفاحا، فلماذا يترك أمهات اليوم أولادهن، ونحن لا عار لدينا ولا شقاء؟

إن بيننا الأم الرؤوم والخليلة والوفية، غير أن السواد الأعظم منا يؤثرون الاستغناء عن الرجال.

وأدلت شيرون بملاحظات غريبة في هذه الناحية، فقالت:

– لقد وقفنا على كثير من طبائع الرجال والنساء، فعملنا أشياء لم تكن تخطر على بال أولئك الهمج الساذجين، أهل العصر المنصرم. كان المعتقد السائد، أن الإنسان أحد إثنين، إما رجل وإما امرأة. وقد استُنبطت من هذا الإعتقاد الباطل نتائج فاسدة، فظُن أن كل امرأة على الإطلاق أنثى وأن كل رجل على الإطلاق ذكر. والواقع غير ذلك، إذ أن فينا نساء أكثر أنوثة، وأخريات أقل تأنثاً. إنما خفى هذا التباين على أهل العصور الماضية لأنه كان محتجباً وراء الزيّ ونوع المعيشة، ولأن الأوهام والأباطيل كانت تحول دون الوقوف عليه، ولكنه تكشف جلياً في المجتمع الحالي، منذ أخذت المرأة تظهر في زيّ الرجال، وتعمل أعمالهم، وتفكر على منوالهم، حتى أصبحنا اليوم نرى كثيراً من النساء المترجلات. بل أن هذا التباين آخذ في الأزدياد والوضوح من جيل إلى جيل. وليس ببعيد أن نصير يوماً إلى جنس «متعادل» شبيه «بالعاملة» في جماعة النحل. وتلك تكون ميزة عظيمة، إذ يصبح في الوسع زيادة الإنتاج دون زيادة السكان، زيادة تربي على حاجيات المعيشة. فإننا نخشى الزيادة كما نخشى العجز في المواليد.

فشكرت لبرسيفال وشيرون فضل إيقافي على معلومات قيّمة في

هذا الموضوع الخطير.

ثم سألت إن كان التعليم غير مهمل في المجتمع الجماعي، وهل لا يزال لديهم علوم فلسفية وفنون جميلة.

فقال مورين:

– إن التعليم على اختلاف درجاته في نمو وانتشار. وقد حصل كل زميل على قسط منه. إلا أنهم لم يتعلموا جميعاً علوماً واحدة، كما أنهم لم يتعلموا أشياء لا نفع منها. فنحن لا نضيع الوقت في دراسة الحقوق أو اللاهوت. وقد أتيح لكل ناشيء أن يختار ما لا يلائمه من العلوم والفنون. وما زلنا نطبع كتباً، بل أن ما يطبع اليوم يفوق ما طبع في أي زمان مضى. غير أن الطباعة صائرة إلى الزوال. فقد أخذ الروائيون والشعراء ينشرون مؤلفاتهم بواسطة الحاكي. وابُتدعت طريقة جديدة لنشر الروايات التمثيلية قائمة على قاعدتي الحاكي والصور المتحركة، تجمع بين كلمات الممثل وحركاته "٩" .

– قلت: وهل عندكم إذن شعراء وروائيون.

– قال: ليس لدينا شعراء فقط، بل لدينا شعر خاص بنا. فنحن أول من جعل للشعر مجالاً محدوداً لا يتخطاه. وكان الناس قبل عهدنا يزجّون

٩) لم تكن السينما الناطقة معروفة في الوقت الذي كتبت فيه هذه القصة أي في سنة ١٩٠٣.

بالشعر في كل شيء، فكانوا يتخذون منه أداة للافصاح عن كثير من الآراء والمعاني، في حين أن النثر لمثل ذاك أدق أبانة وأوفى عبارة، وكانوا ينظمون القصص والأحاديث، بل كانوا قديماً ينظمون نصوص القوانين، وطرائق فلاحة الأرض. أما اليوم فإن الشعراء لا يقولون سوى أشياء رقيقة لا معنى لها، ولكل شاعر أوزانه وقوافيه، يبتدعها كيفا شاء. وأمست مسارحنا مقصورة على الموسيقى، فإن المأساة لم تعد تقع في نفوسنا، بعد زوال العنف والقسوة من حياتنا. وكذلك الملهاة قد نضبت كل مادتها، بعد توحيد الطبقات، ومساواة الرجل بالمرأة. فنحن لا نُعزم بشيء سوى الموسيقى، التي لم تكن يوماً أجمل منها في أيامنا. وعصرنا جدّ ملائم للتصوير وفن التماثيل. إذ أضحت حياتنا أصفى وأبهى من حياة الطبقة الموسرة في العصر السالف، وأصبحنا أقوى شعوراً بالأشكال، وأشد ولوعاً بالجمال. وقد بذلنا من الجهد في سبيل تعليم الفنون ما لم يبذله قوم سوانا. وإذا ما جُلتَ بطائرتك بضع دقائق فوق أحد شوارعنا، أخذتك الدهشة من عدد المدارس والمتاحف.

ثم سألت أخيراً:

– هل أنتم سعداء؟

فهز مورين رأسه وقال:

– ليس في طبيعة الإنسان ظان يتذوق السعادة كاملة، لأن السعادة لا تكون بغير جهد، والجهد لا يكون بغير مشقة وألم. إنما نحن قد

جعلنا الحياة مطاقة للجميع. وهذا شيء يُذكر. وسوف يصير الخلف إلى أفضل، لأن هذه النظم ليست بجامدة. فهي في تحوّل دائم. وقد كانت منذ خمسين سنة فقط مغايرة لما هي عليه اليوم. بل أن بعض المفكرين منا يظنون أننا عل أبواب انقلاب عظيم.هذا محتمل. غير أن تقدم المدينة الإنسانية سيجرى منذ الآن في تناسق وسلام.

قلت:

– ولكن ألا تخشون غارة تشنّها عليكم الشعوب الهامجة، فتهدم هذه المدينة التي تزهون بها، فقد فهمت من حديثك أنه لا يزال في آسيا وأفريقا شعوب عظيمة سوداء وصفراء لم تدخل تحت لواءاكم. ولا بد أن تكون هذه الشعوب مجهزة بالعدة والسلاح، في حين أنكم لا سلاح لكم. قلب: فإذا ما انقّضتْ عليكم...

– نحن في حرز من هذا الخطر، إذ لا يقوى على منازلتنا في الحروب، إلا الأمريكيون والأستراليون، لأنهم بلغوا شأونا في العلوم. ولكنهم بعيدون، تفصلنا عنهم المحيطات، ثم أن اتحاد مصالحنا المشتركة يكفل لنا صداقتهم، أما زنوج أفريقيا، الرأسماليون، فلا يزالون في عهد المدافع الحديدية والأسلحة النارية التي كانت شائعة في القرن العشرين، ماذا تستطيع هذه العدد الأثرية العتيقة أمام أشعة y؟ إن حدودنا محصنة بالكهرباء، يحيط بها نطاق من الصواعق. وهذه القوى الساحقة خاضعة لأمر رجل صغير ذي منظار، جالس، لا أدري أين، أمام

لوحة عليها صف من الأزرار، وهو جندينا الوحيد. وما عليه إلا أن يضع أصبعه على أحد هذه الأزرار ليُبيد جيشاً مؤلفاً من خمسمائة ألف مقاتل.

وجعل مورين يتردد برهة ثم قال باطئاً:

– فإن كان ثمة خطر على مدنيتنا فإنه لا يأتي من أعدائها في الخارج بل من أعدائها في الداخل.

– قلتُ: وهل يوجد لديكم مثل هؤلاء الأعداء.

– قال: لدينا عدد جمّ من الفوضويين، وهم محتدمون، أذكياء. فالكيميائيون وأساتذة العلوم والآداب معظهم فوضويون، زعمون أن العلل التي ما برحت تنتاب المجتمع، راجعة جلّها إلى تنسيق العمل والإنتاج. وعندهم أن الإنسانية لا تكون سعيدة إلا إذا عاشت على حالة التوافق الفطري الذي ينشأ عن الهدم الشامل للمدنية. هذه الفئة شديدة الخطرن وإذا ما قمعناها أمست أشد خطراً. غير أننا لا نميل إلى القسر، بل ولا نملك الوسيلة إليه، لأن نظامنا خلو من أسباب العنف والشدة، ونحن لا نرى ضيراً في هذا. كان الناس في العصور الوحشية يتوهمون أن العقار رادع عن الشر، ولكنّا محونا النظام القضائي بأجمعه، لأننا لم نعد بحاجة إليه. فإن إلغاء الأمتلاك قد قضى على التلصص والاحتيال. كذلك الاعتداء على الأفراد أضحى لا يخشى وقوعه، منذ أخذنا نحمل أجهزة دفاع كهربائية. فبات الإنسان مَهيباً عند الإنسان. على أن بعض الجرائم الغرامية ما زالت تُقترف، وستظل تقترق على الدوام، ولكن هذا النوع من

الجرائم يصبح نادراً متى كان بلا قصاص. لم يبق لنا من نظم القضاء سوى مجالس تحكيم، مكونة من أعضاء منتخبين، يفصلوم في المنازعات والمخالفات، من دون أجر.

فقمت وشكرت لزملائي حفاوتهم ثم رجوتُ مورين أن يتفضل بالإجابة عن سؤال أخير.

– قلتُ: ألا تدينون بدين.

– قال: بل لدينا عدد كبير من الأديان، بعضها حديث العهد، والبعض يرجع إلى العصور الماضية، وإذا إقتصرنا على فرنسا وحدها، فإنك تجد فيها أديان الإنسانية والإيجابية والمسيحية والروحانية، ولا يزال فيا بعض الكاثوليك، ولكنهم قليلون، ومنقسمون إلى شيع عدّة، وليس لهم بابا "[١٠]منذ زمن بعيد. فقاطعه ميشيل قائلا:

– أنت مخطيء، فما يزال البابا موجوداً. وقد عرفته اتفاقاً. فهو يبوس الخامس والعشرون، وصناعته صباغ في شارع «ديل أرسو» بروما.

فقلت مندهشاً:

– كيف ذلك؟ البابا صباغ؟

---

١٠) Pape وهو الرئيس الديني للكاثوليك.

– قال: وما وجه الغرابة؟ ألا يجب أن يتخذ حرفة، شأن غيره من الناس.

– قلتُ: وكنيسته؟

– قال: إن رعاياه لا يتجاوزون بضعة آلاف في كل أوروربا.

ثم افترقنا عند هذا. وقال لي ميشيل إن من السهل العثور على مسكن لي في الأماكن المجاورة، وأن شيرون تستطيع أن تهديني إليه عند عودتها إلى بيتها.

سرتُ إلى جنب شيرون، وكانت سُدفة الليل صافية ساحرة.

جعلت أنظر إلى زميلتي، فلحظت أن لها نعلين مستويتين تكسبان خطواتها متانة وقامتها اعتدالاً، وكانت تضع في الواقع، ومع هذا فقد كانت مشيتها بسيطة لا تخلو من شم، وكانت ترسل ذات اليمين وذات اليسار نظرات صريحة طليقة من قيد التصنّع والوجل، وهذه أول امرأة رأيتها تستطلع في هدوء، وتتجول في لهو وسلوى. وكانت معارف وجهها تلوح تحت القلنسوة وسيمة واضحة. لقد أحنقتني هذه المرأة وفتنتني في آن واحد، ولكني كنتُ أخشى أن تسخر مني، وترميني بالغباوة والبَلة، إذ كان ظاهراً على الأقل، أنني لم أصادف عندها سوى منتهى الجمود، فهي لا تعبأ بي ولا تكترث لشأني. غير أنها سألتني بغتة عن مهنتي، فأجبت من دون روّية إنني كهربائي.

– قالت: وأنا أيضاً.

فبادرتُ إلى إيصاد هذا الباب من الحديث، حيطة وحذراً.

وكانت أصوات لا مثيل لها تملأ جوف الليل بضجيجها الهاديء المنتظم، وتبعث في الرعب كلما أنصتُّ إليها، إذ كان الوهم يصوّر لي أنها ليست سوى أنفاس ذلك الجنّي الهائل الذي يحرك هذا العالم الجديد.

وكنت كلما أطلت النظر إلى زميلتي شعرت نحوها بَوله يُسعّر جذوته شيء من البغض.

– قلت لها فجأة: إذن أنتم قد وضعتم للحب سناً علمية، فأصبح أمراً لا يهتز له جنان.

– قالت: أنت في ضلال. لا ريب أننا قد جاوزنا عصر البلاهة والهيام، وأن نزعات الجسم قد تحررت من وحشية الزواج وإرهاب الأديان، وأننا لم نعد نتمثل الواجب في صورته الكاذبة القاسية، ولكن جاذبية الأجسام بعضها إلى بعض لا تزال أمامنا سراً غامضاً. وما برحت قوة تخليد النوع– وستظل أبد الدهر– عنيفة كثيرة الأهواء. والغريزة اليوم، كما كانت بالأمس، أقوى مراساً من العقل. نحن لا نفوق الأقدمين في معرفة هذه الحقائق، وإنما في الجهر بها. إن بين جوانحنا قوة قادرة على خلق العالم، وهي الشهوة، وأنت تريد منا أن نستنّ لها نظاماً؟ هذا

لا قبل لنا به. نحن لم نعد همجاً، ولكنا لم نصبح بعد حكماء. إن الجماعة تجهل تماماً كل ما له صلة بالعلائق الجنسية. وقد تركت هذه العلائق وشأنها، تكون ما في مقدورها أن تكون. وهي في الغالب مطاقة، ونادراً لذيذة، وأحياناً فظيعة. إنما ات تظن أيها الزميل أن الحب أصبح أمراً لا يهتز له جنان.

لم يكن في وسعي مناقشة آراء على هذا الوجه من الغرابة. فأدرتُ الحديث إلى خصال النساء.

– قالت: النساء ثلاثة أنواع: العاشقات والمستطلعات والجامدات.

وسألتها من أي نوع هي. فنظرت إليّ نظرة يخالطها شيء من الترفع، ثم قالت:

– والرجال أيضاً على أنواع عدة. فهناك أولاً الوقحون...

أدركتُ من هذه الكلمة أن زميلتي أقرب إلى عصري مما كنت أتوهم، حتى هذه اللحظة.

فأخترتُ لها اللهجة اليت أعتدتها في مثل هذه الظروف، وجعلت أقول لها أشياء تفهة طائشة. ثم سألتها:

– هل لي أن أحظى بمعرفة اسمك الصغير.

– قالت: ليس لي أسم صغير.

ثم رأتْ أن هذا النقص يبدو مستهجناً في نظري، فقالت في شيء من الحنق:

– وهل تظن أن المرأة لا تروق إلا إذا كان لها اسم صغير، أو أسم عماد، كما كان للنساء قديماً، مثل مرغريت أو تيريز أو جان؟

– قلت: إنك لبرهان على عكس ذلك.

وأخذتُ أفتش عن نظرها دون أن آلاقيه. فكانت كأنها لم تسمع شيئاً. لم أعد أشك في أنها مُدلّة، فخلبني هذا الدلال، وقلت لها إني أجدها فاتنة، وأنني مولع بها. وجعلتُ أكرر عليها هذه الكلمات. فتركتني أبث لواعجي مبدئاً ومعيداً، ثم قالت:

– ما معنى هذا؟

أمعنتُ في الإلحاح، فأنتبتني قائلة:

– هذه وسائل وحشية.

– أنتِ لا تميلين إليَّ؟

– لم أقل هذا.

– شيؤون! شيرون! هل يشقّ عليك كثيراً أن...

جلسنا على مقعد تظلله الأوراق. فأخذت يدها ورفعتها إلى شفتيّ... ثم غاب شعوري بغتةً فل أعد أحسّ أو أرى شيئاً حتى وجدتني ناءماً في سريري.

دلكتُ عينيَّ من وخز ضوء الصباح فأبصرتُ خادمي واقفاً أمامي، تبدو عليه لائحة البلادة، وكان يقول:

– الساعة بلغت التاسعة يا سيدي. وقد أوصاني سيدي بأن أوقظه في الساعة التاسعة. فجئت أقول لسيدي أن الساعة قد بلغت التاسعة.

الفهرس

مقدمة ٥
بلتازار ٩
الآنسة روزان ٣١
عصر جديد ٤٩